رحلات

# طالب عبد العزيز

# من الفندق إلى الحانة

مكتبة الحبر الإلكتروني
@bookkn
d110d

# من الفندق إلى الحانة

مكتبة الحبر الإلكتروني
مكتبة العرب الحصرية

اسم المؤلف: طالب عبد العزيز
Author: Taleb Sbdu Al-Aziz
عنوان الكتاب: من الفندق إلى الحانة
Title: Min Alfunduq Ilaa Alhana
تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
Cover Designed by: Majed Al-Majedy
الناشر: دار المدى
P.C.: Al-Mada
الطبعة الأولى: 2019
First Edition: 2019
جميع الحقوق محفوظة: دار المدى
Copyright © Al-Mada

**دار المدى للإعلام والثقافة والفنون**

بغداد: حي أبو نؤاس - محلية 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

www.almada-group.com email: info@almada-group.com

+ 964 (0) 770 2799 999 + 964 (0) 770 8080 800 + 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا - شارع ليون- بناية منصور - الطابق الأول

dar@almada-group.com

+ 961 706 15017 + 961 175 2616 + 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد - متفرع من شارع 29 أيار

almadahouse@net.sy

+ 963 11 232 2276 + 963 11 232 2275 + 963 11 232 2289

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدّماً.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recoding or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

طالب عبد العزيز

# من الفندق إلى الحانة

# كتاب في السفر

# فُندقٌ للسّرد، حانةٌ للشّعر.

هاشم تايه

الشّعرُ شاء، فلتكُنْ مشيئتُه!

سيكون الأمر مفهوماً: ذاتٌ شعريّة متحكّمة استفرغت الجسدَ لقواها سيكون عسيراً عليها أن تصمتَ، أو يَخفتَ صوتُها وهي في معاقلها، معاقلِ الجمال القاهر، الحسيّ خاصّة.

لا ضيرَ في ذلك: أن تتطوّحَ الحدودُ طائعةً، فتتحرّر الفضاءاتُ، وتتداخل في بعضها، لتغدوَ فضاءً تشاركيّاً موحَّداً للإغراء الذي يصنع التباساً ماكراً يُقلقلُ وعيَنا، إغراء أنْ ينقلبَ السّردُ شعراً حينَ يستطيل، فيضجر، وأنْ يرتدَّ الشعرُ سرداً كلّما رغبَ في التقاط أنفاسِه. كما يُفرغُ الفندقُ ضجرَهُ في حانةٍ، وتحلُّ الحانةُ، لتستريحَ، في فندق. وإذْ يستحكمُ الإغراءُ، وحقُّهُ أنْ يستحكم، فإنّهُ صانعٌ تكويناً مُنشقّاً، مُذبذباً، لامبالياً، له لَذعُهُ الخاص، وفكرتُهُ عن شكله التركيبيّ المتغرّب.

وفي التحام لا أملَ في تفكّكه، حتّى آخرِ المطاف، يقودُ السّردُ السّفرَ، والترحالَ بين مكانٍ، وآخر، ويتفنّنُ الشّعرُ في ترصيعِهِ كلّما وقفَ- السّردُ - مبهوراً بين جلال الأمكنة، وفتنتِها.. ويتأبّطُ السّردُ الشّعرَ مادامَ المكانُ إلْفةً، ماضياً يحكي حكايتَهُ، ونكهةً آسرةً في الحاضر.. لا ضيرَ في إضراب السّرد، بالشعر، عن السّرد، مادمنا نُسجّل انبهارَنا بأمكنةٍ فاتنةٍ، عريقة، مادام يَعنينا كثيراً بَسْطُ تعرّفنا عليها من أول ملامسةٍ ستكون، دون ريب، ملامسةً شعريّة بحكم تأثيرها المباشر في حواسّنا، مادمنا في قيْدِ استجاباتِنا الحسيّة، في قيد انتشاءاتنا، وانبهارنا بما نرى، نسمع، نشمّ، نذوق منفعلين، غارقين في شعورٍ مستطار. لا بدّ من الشعر لاستفراغ الدهشة في تكوين لغويّ، يبردُ حيناً، ويلتهبُ أحياناً.

لن يعترض النثر: أنْ تتفتّحَ في عروقِهِ تفتّقاتُ الشعر.. لماذا لا يكون هذا الكتاب النثري- الشعري احتمالا من احتمالات النثر، وإمكانا من إمكاناته، واقتراحاً فيه؟ أهو كتابُ توأمةٍ، ومؤاخاةٍ بين نثرٍ وشعر؟ أظنه كذلك. ثمرة تسويةٍ عظيمة.

ماذا يكونُ هذا الكتاب؟ إنّه كتابٌ جماليّ للتبشير بألوهيةِ الحواس! بأننا بدْءاً، وآخِراً مدينون

للحواس، بل نحنُ مخلوقاتُها في أصلنا، وفصْلِنا. الحواس التي تعقل بطريقتها الخاصّة، وتتمتعُ بقدرةٍ متفوقة على أنْ تُضيفَ شيئاً لما ترى، تسمع، تشمّ، تلمس، تذوق، وتُشجّعَنا على اجتراح المزيد من الإضافات التي سيتولاها الشعرُ بطاقته الخلاقة.

لا يهمني أن أجازف لأقول إن كلَّ حاسةٍ من حواسّنا ذاتُ طبْعٍ شعريٍّ مكين، وهي تستجيبُ منفعلة، ولهذا لا يفوتُها أنْ ترسلَ معلومةً مُتّشحةً بانطباعٍ تأثريٍّ مُلتهب. وما الشاعرُ إلّا جُماعُ ما تضعُهُ حواسُّهُ من موادّ في خيالِهِ، وعاطفته، ولغته. وإذن! فالكتاب تقريظٌ للأمكنة في إنشائها شخصيّاتِها المتفرّدة، (تقريظٌ للطبيعة) في احتفائها بسحرِها الخاصّ، للذّة المتعالية في تهتّكها تعبيراً منلفتاً عن الحريّة، للأنثى في سماحتها، وكرمِها، امرأةً، وكأساً، وشجرة... متعةٌ لا تكلّ للكلمات ثملاتٍ يُعرّي بعضُها بعضاً، في فندقٍ، أو حانةٍ، غيرَ عابئات إلاّ بالانتشاء داخل جملةٍ منتقاة من الرّحابة والضوء. وبين تعبيرٍ للبهجة، وآخر للابتهاج، الكثيرُ من الحبّ الطليق لكلّ موجودٍ باذلٍ كيانَهُ، روحاً كان، أمّ مادةً. ما العالمُ غيرُ سخائِهِ؟ غيرُ توقيرِهِ ذاتَهُ في تفتّحِها، وطلاقتِها؟ الكتابُ حضنٌ، كما العالم حُضن، فندقاً، كان، أم حانةً، سريراً، أم طريقاً. وهذا الكتابُ ينسجُ ذاتَه، في شكله الخاصّ، من سفرِه، أعني من طبيعته سفراً، وترحالاً، وتنقلاً، ومشاهدات، ولهذا انتظم، الكتابُ، في بُقَعٍ، وبين بُقعةٍ، وأخرى، على امتداد الجغرافيات، طريقٌ في سماء، أو على أرض، وما من طريق إلاّ استهلك مسافته، وقطَعَها ماشياً بأقدام السّرد، أو طائراً بأجنحة الشعر.

في ظني، وقد أكون مخطئاً، أن الانطباعاتِ المؤلَّفَةَ في هذا الكتاب عن الأمكنة إنّما تبلغُ غايةَ تأثيرِها فينا كلما اتسمتْ بسماتٍ تأمليّة، كلما توقفتْ لتفكّر في ذواتاتها، لتبحثَ بين ظلالها، وفي امتداداتها، لتنعكس في إهابٍ تأمليّ يُعمّقُ حضورَها في وعينا، ويكثّف مادتَها في أحاسيسنا، فالمهمّ أن تتحوّلَ هذه الانطباعاتُ إلى استخلاصاتِ رؤيةٍ، ونَظَرٍ، وجَدَلٍ مع المرئي، وذلك ما نجده في الكثير من المواضع على صفحاتِ هذا الكتاب، حيث الأشياء، والأمكنة تُقيمُ، أو تتحرّك في فضاءٍ تفكيريّ، خلاق، يحافظ على شحنتِها العاطفية، ولا يُطفئها، حيث تتوقّفُ تدفقاتُ الشعر لتنشغلَ اللغةُ بإنشاء تصوّرٍ، أو بناءِ استبصار.

إنّ الحسيّة المرهفة في هذا الكتاب بنزوعها الالتذاذيّ العارم لا تني تتراجع، هنا، أو هناك فتبرد حُمّاها كلّما اخترقتْها لطافةٌ تصوفيّة مشعّة تنبسطُ روحُها في نزعةٍ تُقدّسُ الأشياء، وتُوقّرُ الأمكنة. الأشياء، والأمكنة التي ترغبُ فينا، وتشدُّنا إليها من أصقاعنا، كما نرغبُ فيها. فما من مكانٍ يخلو من اشتياقٍ لكائن، وما من شيءٍ يكون إلاّ برغبةٍ في سواه.

**البصرة في أيلول 2018**

# بين روما وفلورنسا ونابولي

# الليالي العشر التي بطعم النبيذ

في الثلث الأخير من الشهر الأول من العام 2004 حيث لم يمض على سقوط نظام صدام حسين أكثر من تسعة أشهر، وعلى الطريق التي كانت خالصة للدبابات الامريكية الصاعدة الى بغداد، عبر بادية الرمل، التي بين سفوان والعبدلي، أخذتنا الحافلةُ الجميلة محاطة بعربتين مصفحتين الى الكويت. وفي فندق الكونتيننتال، وسط العاصمة أقمنا ليلة. كنتُ واحداً من شعراء وصحفيين ومثقفين وأرباع مثقفين، اقترح أحدهم فريقنا الى السفارة الإيطالية بالتنسيق مع الكاربنيري (الشرطة الإيطالية) العاملة في مدينة الناصرية، لننتظم في دورة صحفية، أقامتها لنا وكالة أنباء (أنسامت) وهي ثالث أهم وكالة صحافة في العالم.

كنا لا نعرف من قواعد ركوب الطائرات أكثر من أن نأتمر بما تقوله لنا المضيفة الجميلة، ربطنا الاحزمة وسوينا ظهورنا وانتبهنا جيداً لما تحذرنا منه عند الإقلاع، بعضهم أشار علينا أن نفتح أفواهنا قبل ان تستوي الطائرة في الفضاء، في مصالحة مع ضغط الهواء، داخل الجسم وخارجه. كنت أتأمل الرحلة، الخريطة امامي تفيد باننا خرجنا من سماء العراق، هذه هي المرة الثانية التي أجتاز الحدود فيها، فقد سبق لي أن غادرتها بالسيارة الى عمّان عام 1994. الخريطة تحدثني عن مسار ما كنت لأصدقه، فقد عبرت الطائرة حدود الأردن ودخلت أجواء إسرائيل، هذه هي المرة الأولى التي يخامرني فيها شعور بالخيانة، إذ أنني دخلت دولة معادية، خفت بحق، فما زالت صورة المسافر الى خارج العراق، أيٌّ خارج، مشوبة بالتجسس والعمالة. أحسست، كما لو أن الطائرة ستتوقف وتهبط في مطار اللد، وأن عودتي للعراق ستكون فيصلا بين حياتي وموتي. الشعور ذاته، خامرني ثانية في مدينة سيتا بالجنوب الفرنسي، حين التقيت في صيف سنة 2014 الشاعر الإسرائيلي الشاب(أليعازر كوهين) مع مجموعة من الشعراء اليهود، في مهرجان شعراء البحر المتوسط، لكم تودد لي هذا اليهودي من الأصول البولونية، لكنني كنت أصدّه بشكل غريب، كانت الطاقية السوداء على رأسه تفزعني، أظنني، كنت مخطئاً في تقدير ودِّه لي.

كان معبد الاولمب وسلاسل الجبال السوداء وحجارة كريت وانوار أثينا أكثر من دليل على أننا فوق اليونان، وأنَّ البحر المتوسط (الأزرق) أوحى لنا بان السماء الى روما باتت قريبة،

ربما، رفعت يدي محيياً كازنتزاكي، هل أقول بأنني لمحت ظلال ريتسوس على الشواطئ البازلتية. مضت الدقائق سريعة، ومثل حذاء عامل منجم كبير بدت خريطة ايطاليا أمامي، في شاشة الطائرة، تذكرت أطالس المدرسة، التي شغفت بتصفحها. ها نحن نقترب من بلاد المحاربين الرومان، إذن.

في الثامنة والنصف من صباح الاحد، الحادي والعشرين من كانون الاول هبطت الطائرة بنا في مطار روما، يا الله، هئنتذا يا طالب في عاصمة الرومان. واو، روما مرة واحدة!! كنت أقول لماجد عبد البطاط، صاحب فكرة الرحلة والمنسق بين السفارة الإيطالية وبيننا، يا ماجد: «كان حريّاً بك أن تختار لنا بلاداً غير إيطاليا، نحن حديثو العهد بالسفر، ولا نعرف عن خرائط الدنيا أبعد من بغداد وعمان والقاهرة» فيقول مبتسما: «من أبي الخصيب الى روما». ومن نافذة الميني باص، حيث صعدنا متوجهين الى الفندق، كنت اطالع الشوارع والازقة والساحات وهي تزدان بالنصب والتماثيل، كانت روما بحق المتحف الأول الذي شاهدته في حياتي، إذ لم يسبق لي ان دخلت متحفا من قبل، سوى متحف التاريخ الطبيعي، الذي كان على شط العرب، بالبصرة.

كانت مدينة نابولي، عاصمة إقليم كامبانيا منطلقنا في الرحلة، التي اتجهنا فيها الى روما، عاصمة اقليم لاتسيو، حيث زرنا مقر صحيفة «الميسّاجيرو» اكثر اليوميات شيوعا في الاقليم، وفي المطعم الذي أذن لنا بالعشاء فيه، سألت محموداً عن اللوحات الفنية التي شاهدتها في الحمامات، ما إذا كانت نسخاً أو أصليةً، فنفى أن تكون مستنسخة، أمر معيب أن يقتني صاحب المطعم نسخاً مصورة. ولما أنهينا الايام الثلاثة هناك، اخذتنا المركبة الى فلورنسا، التي في شمال ايطاليا، حيث زرنا صحيفة «لا ناتسيوني» (الامة) او (الوطن). يقول محمود بأن العوائل الثرية في فلورنسا لعبت دورا هاما في ترسيخ ونشر الثقافة والفن الايطاليين، هناك. وراح يحدثني عن عائلة «ميديتشي»، أشهر العوائل التي قدمت للفن في ايطاليا ما قدّمت، ومنه سمعتُ أن كارفاجيو لا يقل شأنا عن مايكل انجيلو ودافنشي وأنها، فلورنسا، موطن الشاعر الأيطالي دانته الليغييري، مؤلف الكوميديا الالهية. وخلال رحلتي الى روما أخذت عشق النبيذ الخاص باقليم توسكانا، النوع المسمى «برونيللو دي مونتالتشينو» فهو يعد الالذ والاشهر وطنيا وعالميا ايضا. ثم أنه راح يؤكد علي بأن بعض الأنبذة المصنوعة في الاقليم تنافس افضل انواع النبيذ الفرنسية، إذ يتنافس الجميع على المراكز العشرة الاولى في المزادات العالمية التي تنظم يوميا على الانترنت.

عند العتبة، وقفت أقرأ اسم الفندق، الذي سأسكنه، فإذا هو (ليوناردو دافنشي هوتيل). كانت الأيام الثلاثة التي أمضيتها فيه أجمل الأيام والليالي، طلبت كأساً من نبيذ توسكانا وقطعة من جبنة نابولي مع فطور الصباح الذي أعد لنا في بهو الفندق الجميل، لا لم يكن الوقت مبكرا على النبيذ، هو جوع حقيقي للتخلص من وجوم وجوه كثيرة، راحت تطالعني وأنا اتناول بيد المحب كأس النبيذ التي امدتني بها نادلة المطعم الشقراء، ومثل دبيب نمل كثير شقت الخمرة طريقها الى صدغي، فتلمست اللون الزهري وهو يصعد ويصعد، حتى خالط الأضالع والشراسيف وداية العنق، قبل أن يستقر في منبته، هناك، في الروح النابهة، الذاهبة بكليتها الى الجمال. يقول محمود الدليمي، الإيطالي من أصول عراقية «هناك حكمة رومانية قديمة، تقول في روما عليك ان تتصرف كالرومان».

لم أكُ لأنشغل بهموم الصحافة والتدريب عليها في صناعة الخبر، والتقرير، والتحقيق، فقد كانت مملة، وكنت برما منها، لكنني كنت انتظر هبوط الليل مع اثنين من الأصدقاء هبوط الليل ليأخذنا سائق المني باص الى شارع كريستوفر، حيث بنات الليل تحت الأشجار، على الرصيف، وهن يحتمين من المطر تحت مظلاتهن، ينتظرن زبوناً، كنت أظنُّ أنهن بكامل ثيابهن، لكنني فوجئت بان مدرعة الجلد تخفي الجسد الأبيض المتوسطي، ولطالما أشفقتُ عليهن من ريح ومطر، كان السائق يكلمهن عن ثلاثة سائحين من العراق (عادل حميد وعبد الرزاق عبد الكريم وطالب عبد العزيز) فيما كنا نحن الثلاثة منشغلين، نقدر طول التنورة وحجم الكولسون، مبحرين بأعيننا في المجرى الذي ضيّقت من سعته حمالة الصدر. هكذا، حتى إذا مضى من الليل شطره البعيد، أخذنا بعضنا الى حانة الفاتنة الأوكرانية، بقميصها الأسود الضيق، ينحشر فيه جسدها اللبني الفاتن، وهي تسقينا نبيذها التوسكاني بالكفّ التي لا أطهر منها إلا القدم التي تسعى بها بيننا، إلا النظرة البريئة التي ترسلها من خلف ابنوس البار الدهني الصقيل، حيث نعب من الكؤوس ما لا يحسب نهاية له.

بعد ثلاثة أيام من إقامتنا في روما تبين لي أنَّ صاحبي في الغرفة مغرمٌ بمجلات البورنو، فقد جلب منها الكثير وكنت لما أتنبه بعد للرزم الكبيرة التي راكمها قرب خزانة الملابس، لكنني، وفي حركة من يدي اسقطتها، كانت مغلفة بالنايلون الناعم فتزحلقت على الأرض. هالني مشهد القضبان والفروج والأجساد العارية وصور العناق الحميمية بين النساء والرجال من جهة والرجال والرجال من جهة أخرى، غير أنني لم أعر ذلك انتباهاً فقد ذهبت بكليتي الى صاحبة الحانة الأوكرانية، ذات التيشيرت الأسود بذراعها اللبني، حيث سأقف في الغد قبالة أرفف النبيذ التي خلفها، أتطلع ليدها وهي تبسطها لتناولني ما شئت، كان عبد الرزاق أكثر

منا جرأة في محاورتها والحديث معها، لكننا تحسسنا معاً أنها مرتبطة بعلاقة مع حبيب لها، وما تتصنعه من لطف معنا كان جزءًا من عمل تتقنه، لا أكثر. ألم أقل لكم باننا لم نكُ نفهم من السفر أبعد مما تأمرنا به مضيفة الطائرة.

في مطعم «الغامبيرو روسّو» الذي يعني الروبيان الاحمر، وهو احد اكبر المطاعم وارقاها في العاصمة. اجتمعت مجموعتنا مع المجموعة الثانية في سهرة الليلة التي أقامتها على شرفنا وزارة الخارجية الإيطالية، وحضرتها شخصيات رفيعة في السلك الدبلوماسي الأجنبي، فضلاً عن أعمدة الصحافة الإيطالية، لذا كان محمود الدليمي، كبير قسم الترجمة الى العربية في وكالة أنباء انسامت يوصينا بالرصانة والكياسة في الحديث والسلوك، وأن نتحدث كصحفيين، في إشارة الى الاقتصاد في الكلام وتجنب الاسهاب والاطناب. في الليلة تلك، كنت الى جواره، وحين جيءَ بالمائدة، التي عادة ما تكون على ثلاثة أطباق، كنت سألته عن كيفية تناول الاسباكيتي، إذ، أنني، حتى اللحظة تلك، لم أكن لأعرف له تناولا وطعماً، فأشار لي أن هكذا. وفي الليلة تلك، رأيت النادل وهو يجعل يده اليسار خلف ظهره حين يهم بسكب النبيذ بيده اليمين، في الليلة تلك، غضبت لمشهد هو الاقبح، إذ أنَّ أحد أعضاء وفدنا(الصحفي) من الإسلاميين، اعترض بيده، مانعاً بها النادل من أن يسكب النبيذ في الكأس التي أمامه، وكنت رأيت النادل وهو يغالب الإحراج الذي كان فيه، في الليلة تلك، كان سقف المطعم الكبير مضاءً بالنيون الأزرق، وحين خرجنا كانت روما كلها بلون البلور والبحر، ترقص مع النصب العملاقة والتماثيل، التي تعجُّ بها الشوارع والتقاطعات وواجهات المباني، فتمنحك جانباً بالغ الاهمية في الحياة، كان مشهد العري فيها يحاكي الواقع، وبدا لي جلياً أن العلاقات الجنسية المتاحة جداً وشبه العري الذي تبدو عليه النساء في روما إنما مُررَّ عبر قناة التماثيل تلك، في طمأنة مجتمعية لا تخلو من تخطيط ودربة.

مع الشهرة الواسعة والسمعة الطيبة التي عليها المطعم الإيطالي، إلا أنه كان واحداً من متاعبنا هناك، إذ لم نعتد عليه، لذا، وبعد ثلاثة الأيام الأولى هناك، تحسس منظمو الرحلة تعاستنا تلك، فقرروا أن تكون وجبة العشاء الأخيرة بروما في المطعم اللبناني، وهو مطعم يقع في ضاحية تبعد قليلا عن مركز المدينة، وعند مدخل حديقته الواسعة تنفسنا رائحة الرز واللحم والتوابل، كان سيخ الشاورما أكبر مما نتصوره، وكانت رائحة الرز فاغمة، تملأ المكان وطعم الخبز هو الاطيب، في الليلة تلك، وبعد كأسين من نبيذ توسكانا الأحمر، وقفتُ، أفتي لأصدقائي في الوفد (بحليّة النبيذ بلحم العجل الحنيذ) وفي طريق عودتنا من المطعم الجميل ذاك، كنت أقف وسط حشد الأصدقاء احدثهم بحديث أبي حنيفة، وهو يبيح

الوضوء بالنبيذ، آنئذ، قال هادي الحلفي عبارته الشهيرة: «أنت فقيه روما» في إشارة الى الفيلم الشهير(شريف روما).

في الصباح، وبعد ثلاثة أيام من اقامتنا في (ليوناردو دافنشي هوتيل) بروما حملنا حقائبنا الى الباص لنذهب الى فلورنسا، وعبر الطريق الريفية التي تحاذي سكة الحديد، رأيت، لأول مرة أن اللون الأخضر ليس لونا وحيداً في أوراق الأشجار، فالأحمر والاصفر والبرتقالي ألوان مرادفة أيضاً، وما اعمال الفنانين هنا إلا محاكاة أخرى للطبيعة ـسأتذكر، بعد يوم أو يومين، الحديقة التي كانت إطلالتنا منها بالفاتيكانـ هل أقول باننا سكنا في (مايكل أنجلو هوتيل) أيما والله، قلت لماجد البطاط: يا اخي، أجئت بنا الى هنا لتسخر من احلامنا؟ فردَّ علي: «من أبي الخصيب الى فلورنسا» نعم، حملنا حقائبنا الى فندق مايكل أنجلو، وهنا تملصت من شريكي السابق، صاحب مجلات البورنو وتركتهم يختارون لي شريكا آخر، كان مهووساً بأفلام الجنس أيضاً، علمت ذلك، حين أخذنا حقائبنا مغادرين فلورنسا الى نابولي بعد أربعة أيام من إقامتنا فيها، طالبتنا إدارة الفندق ( أنا وهو) بدفع غرامة مقدراها 130 أورو، وحين سألنا عن موجباتها أجابونا باننا كنا نفتح قنوات التلفزيون غير المرخص بها. كان شريكي لا يغادر الغرفة إلا للتدريب والمطعم، فقد ظل يشرب الخمر ويشاهد التلفزيون، وكنت أجده في كل مرة أدخل فيها عليه، مصغياً، مأخوذاً، معايناً الى أفلام البورنو، في مشهد لا يخلو من الطرافة.

كنت قد انتظمت في طابور طويل مع زملائي في الرحلة وكان أمامنا عدد كبير من السياح عند كشك قاطع التذاكر، أمام باب مبنى الفاتيكان. كان اليوم هو الاحد، والبابا بندكتوس هو البابا الاكبر هنا، مشهد لم أره إلا في السينما ونشرات الاخبار، نحن في كنيسة سان بيتر، الكنيسة التي يتم فيها تنصيب البابوات والقساوسة فينبعث الدخان الابيض من منارتها، كان حشد الزائرين كبيراً جداً، أناس من كل الاقوام، يطوفون في المعلم الاشهر، ومن باب هو الاكبر، تسير أفواج الحجيج دخلنا الممر الذي سيفضي الى مجلس مايكل انجلو الذي رسم قصة الخليقة، كنت بالحيرة التي يقع فيها الجميع، إذ أن أنجلو كان ينام على ظهره ليرسم عمله الخلاق، المعجز فقد كان سقف الكنيسة أعلى مما يتصور. كنت أقلب عيني في أغلال القديس سان بيتر، ومنه عاينت تمثال النبي موسى، حتى أنني خشيت أن تمتد يد أنجلو علي فيصفعني، في الممر الذي يفضي الى الكنيسة أعلمني محمود الدليمي بأن السقف غير بيضوي ولا محدب وإن بدا لك كذلك.

ذات يوم تأخرت عند صاحبة الحانة الاوكرانية، ذات التيشيرت الاسود، شربت من نبيذها ما شربت وتأملت المكان بلوحاته، بالدهان يلمع على الخشب الابنوس، بالموسيقى تنبعث من جنباته، افترض عادل حميد وعبد الرزاق سؤالاً مفاده ماذا لو أنني وقد تعتعني السكر وخرجت فتعرضت لحادث دهس ومتُّ، كيف سيكون وضعي آنئذ، فأجبتهم: «لست بالمحظوظ جداً، لأموت الميتة التي في خيالكم، إذ أنني، ساكون الاسعد، إذا كتبوا في يافطة نبأ موتي قائلين (مات الشاعر طالب عبد العزيز بحادث سير، بعد خروجه مخموراً من إحدى حانات روما).

وفي حدائق قصر الكاردينال، خارج روما، تأخرنا، جنَّ الليل علينا، ولما نكتف بعد من التجوال والتمتع بالطبيعة الخلابة، كانت الحدائق من الجمال بما لا يصدق، طرق ومنعرجات وأزقة خيالية، كلها من الشجر المقصوص، وسط نافورات ملونة، تظللها أشجار عالية مضاءة باجمل ما في روما من نور ومصابيح. في الغابة الليلية هذه، ووسط الظلام الذي يرين، فوجئنا بمن يتحدث العربية، لكن، بلكنة فيها من لفظ أهل الشام الكثير، استوقناهم، كانوا فوجاً سياحياً من أكثر من ثلاثين، بين رجل وامرأة، يهودا وعرباً، كانوا يمازحون بعضهم امامنا، في ود غير معهود عندنا، قدموا من اسرائيل معاً، كانوا جميعاً من مواطني الدولة العبرية، اثارت حفيظتنا انهم أصدقاء، بل وأكثر من ذلك، ليس بينهم من يتحدث عن الانتفاضة والتحرير وفلسطين المحتلة واسرائيل التي تبني المستوطنات. في الليلة تلك، أحسسنا باننا بحاجة الى إعادة التفكير بمستقبل الدين، والايديولوجيا، والاوطان أيضاً.

طلب عبد الرزاق زجاجة شمبانيا، في السهرة التي أمضيناها بالمطعم اللبناني، خارج روما فقال له محمود: في مثل السهرات هذه لا موجب للشمانيا، نحن في المطعم، لكنَّه استجاب للطلب، فأمر النادل باحضار زجاجة شمبانيا، ولأول مرة رأينا، كيف تلف الزجاجة بقطعة القماش وكيف تحاط بالثلج في الوعاء العميق، الذي لم يبد من الزجاجة سوى عنقها، وفيما كانت الكؤوس تدور، في المكان الذي أعاد لنا هيئة الشرق، كان صاحبه اللبناني، الطبيب، المستثمر، قد أثثه بما في الشرق من بهرج وزينة وفولكلور، أرائك من خشب أبيض مسود تحت النور، وسجادات من صنع محلي، أوانٍ نحاسية فاخرة. النساء رقصن على صوت أم كلثوم، شربن من النبيذ ما لا يعلمه إلا صاحب الحانة، في الليلة تلك، عدنا لشرقنا العربي. الآلات الموسيقية التي على الجدران والطعام العربي بالنبيذ التوسكاني مع الصحبة الرائعة جعلت ليلتنا استثنائية بحق. كانت الطريق الى الفندق جدَّ بعيدة، لكنها مظللة بالاشجار والتماثيل.

بعد ساعتين من مكوثنا فيها غادرنا قاعة مجلس الشيوخ الى قاعة الخطى الضائعة، وفيها استوقفتني التسمية(الخطى الضائعة) فأعلمني محمود بانها المكان الذي يجد فيه أعضاء المجلس هدوءهم وبرودة أعصابهم، أولئك الاعضاء، الذين يقترحون مشروعا ما، ثم لا يحظى المشروع بالتصويت عليه، فهم حانقون إذن، لذا، شيدت القاعة هذه لهم، لكي يفرغوا في أروقتها استياءهم وغضبهم، في التعبير عن سخطهم، كيما لا تظل اعصابهم متشنجة، ثائرة. في القاعة تلك، تذكرت اللوحات الفنية، المعلقة على جدران مجلس الشيوخ، التي تحاكي ثبات المشرعين والقضاة الرومان على مبادئهم، حين تعرضت روما لغزو البرابرة، وكيف أنهم ظلوا ممسكين باللوائح والقوانين، حتى اللحظات الأخيرة من حياتهم على يد البرابرة، في تعبير عن علاقة الرومان القدماء بالقوانين.

أمام الكولسيوم، المسرح الأشهر في العالم الذي بناه القنصل الروماني تيتوس إستاتليوس توروس وسط روما، ليس بعيداً عن البوابة التي خرج منها الفرسان الرومان الفاتحون ودخل منها الغزاة البرابرة المنتصرون، حيث توالت الازمنة، بين ثنائية النصر والهزيمة وقفنا، نلتقط الصور، مأخوذين بالبناء المطرمح العجيب، ومن شباك للتذاكر دفعنا خمسة أيورو ودخلنا، كان الحجر يحدثنا عن الذين وقفوا خطباء، وممثلين، ومصارعين وكانت الاقواس ترينا الافق منتصباً في بلاغة لا تدرك معانيها لقد كانت العظمة يوما روما، كما يقول ادغار آلان بو. ومن الرصيف المقابل كان فابيو ريستا، الانثربولوجي، مرشدنا في الجولات السياحية يشير الى قطعة من الارض، جرداء مرمدة، فيها من عفونة الماضي ما لا يصدق. قال، هذه بقايا روما المحترقة، وراح يتحدث عن الامبراطور نيرون، الذي أحرقها، عن عشرات الآلاف من اليهود الأسرى، الذين جلبهم الرومان المنتصرون من أورشليم ثمَّ استخدموا في بناء الكولسيوم. ياه، في السوق الشعبي، خارج روما، ومن بائعة الانتيكات، كنت تبضعت قلاعاً من جبس صغيرة ومحاربين من نحاس مخلوط بالرمل وغير نقي، كان جسر الذهب معبرنا الى الفندق الذي منه خرجنا الى شارع كرسيتوفر، حيث النساء مازلن بقفاطينهن السود، تحت المطر، كل واحدة منهن تنتظر زبوناً جديداً، كانت ليلتنا الاخيرة في روما رطبة، دافئة، بطعم السباكيتي والنبيذ.

# الى مدينة بول فاليري بفرنسا

# الشعر دالَّة التائهينَ على المتوسط

الى متنزه الشجرة الكبيرة (شاتودو) أو حديقة الكتاب، هكذا تسمّى، التي هي مطعم بالأصل، أخذتني البنت التي لم احفظ اسمها، بعد أن تركتُ حقيبتي في مبنى الفيستفال. كان الليل قد خيّم عائداً، وانا في المدينة التي لا أعرف فيها أحداً، أعلمتني بأن حفل الافتتاح أقيم قبل قليل، وهذه الحديقة لك، يمكنك أن تجلس حيث تشاء، كنت مرهقاً من رحلة طويلة ابتدأتها من البصرة الى اسطنبول فمطار مرسيليا الى سيت بالقطار، لذا وجدتُني بحاجة الى أخذ ما يمكنني من الراحة، سمعتُ من ادونيس قصائد، هي مما قرأتُ بعضه، ثم توالت القراءات بكل اللغات. نصبوا المسرح قريبا من الشجرة التي تدلت ملاقط الصوت(المايكات)منها، كانت الانارة الزرقاء أكثر مما تصورت. موسيقى وشعر ونساء. ثم انني فجأة وجدت أن باعة السندويتشات والنبيذ شكلوا طوق جمال ملوّن، لتبديد السأم عند البعض، يضوع بروائح مشتهاة حوالي الساحة، التي وجدتني غريبا فيها، إذ لم أعتد على قراءة الشعر وسماعه في الفضاء المفتوح، أنا ابن القاعات المغلقة. بعد كأسين من النبيذ أسلمت نفسي للنوم، ولما أفقت كان منظمو المهرجان يجمعون اشياءهم، كانت الساعة قد تجاوزت الليل الاول الى الثاني بنصف، والبنت التي لم أحفظ اسمها تركتني في الحديقة، وذهبت الى بيت أمها، أنا لا أعرف من سيت إلا المكان الذي نمت فيه.

كثيرون هم الذين وصفوا لي الطريق الى مبنى الفيستفال، لكنني كنت ادخل شارعا وأخرج الى آخر، أوهم نفسي بالزقاق هذا فيسلمني الى شيء من البحر، أقترح المبنى هذا هادياً فأجدني أمام دكان للبقالة، وهكذا، كلما سألت احداً زادني تيهاً، وكلما أوشكت أن أصل أراني ابتعد، حتى قارب الفجر، فكرت، ماذا لو أنني اتخذت من الرصيف مُقاماً ومنامةً حتى الفجر، وبينا أنا كذلك، التقيت أحدهم، وقد بدا لي أنه من شرقنا العربي، سألته بما في لساني من لفظ الانجليز، لكنه أجابني بالعربية المطلقة. أنت عراقي، قلت يا الله. ومن هناك أخذني، كانت حقيبتي كما تركتها، وحين وصلت الفندق كانت الشمس تقارب الشروق على المتوسط. كان ذلك كله في تموز من العام 2015 حيث يقام مهرجان شعراء المتوسط في مدينة سيت بفرنسا.

في الليلة الثانية، لم تجبرني النادلة على شيء من شراب أو طعام. المقاعد والعشب والأغصان لمستمعي الشعر وللراقصين. كانت الشجرة قد امتدت بعيداً، طاولت البحيرة والمغارة القديمة، حيث كان الجبل وحيدا هنا ذات يوم. تضاغطت الصخور فانبجس الماء سلسلاً سبيلاً، ولأنها وفي مثل ليال كهذه، تفضّل العشب ملامساً بطنها فقد نامت(إيلين)غطّى جسدَها الحسدُ والعابرون، مرَّ عليها القادمون بكؤوسهم من الحانات والراجعون بها فارغة من الشعر والموسيقى، لم يتسنَ للمصابيح ان تتدلى كثيرا، سقط بعضها وانثنى الآخر ذابلاً بنور شحيح، مع تماثيل الخيش والفلين، التي كان يناقلها صاحبها الفنان، مع كل غفلة من أعين الشعراء وتابعيهم بالقصائد الى البحر القريب.

السيدة الشقراء، لصق الشجرة تماما، يتغير لون فستانها مع طبقات أصوات المنشدين، فتخلع عن ثوبها ضاحكة ما تقادم من نظرات. لا، ليس الكؤوس كلها للنبيذ هنا، هي لإكمال الصورة في القصيدة، أو لتأمل ما كان كرْما أو درّاقاً في الحقل ذات يوم. سكان «سيت» النساءَ أقصد، اللواتي بلغن الخمسين أعني، جئن صحبة كلابهن وقططهن. حبالٌ وسلاسلُ، حقائب جلد مع ماكياج غير معتنىً به. وقفن حائرات، أو جلسن من تعب يستمعن للشعر، تحت شجرة المتنزه الكبيرة، حيث قراتُ قصيدتي (عن النبيذ، عن الذين يعصرونه في القرى، خلف التلال) حين كانت الموسيقى تنبعث من نوافذ البيوت، ويتهادى المحبّون الشرفاتِ، مفتوحةً منذ مساء الأحد الماضي. تستفز اصواتُ المنشدين جرسَ كنيسةِ الأم تيريزا فتغمر الهللويّا الساحة.

لم يعطّل الجرسُ ما ظل يُتلى من القصائد. فقد كنتُ أجلس قبالة ناقوسها الكبير، أسفل الدرجات الرخام التي أدّبتها خطى التائبين اللينات، تحت الجدار الصلد وحيث كانت الشمس تهبط منزوعة من الغيم ببطء. المظلات الثلاث لم يفتحها أحدٌ، كلٌّ خيط فيها منسجم مع ما يجاوره من اللون، لكن الظلال كانت كثيفة ينكمش تحتها المارة، مع ما ينكمشُ من الشجر والتماثيل. صوت المنشدة الإسبانية أنسانا أخطاء عربيتها. هذا الشجن الأندلسيُّ ما فتئ يتقطع غاباتٍ في رواق الكنيسة الطويل. هذه الارصفة تترفق بما كان يتكسرُ تحت لسانها من كلمات. المباهج في سيت بضاعة الجميع، والسرور ضالة الطالعين من الحانات آخرة الليل.

أسمّي الأربعاء، التاسع والعشرين من تموز يومي الرابع في المدينة، التي ما زالت تتصبب نبيذا وشعرا وموسيقى، حيث كنت كتبت أقول: الآن تأكد لي بأنَّ القليلَ من الثياب وأنَّ جلوسَ

المرأة في المقهى، أو وقوفَها على بوفيه البار، او جلوسها على القارعة، صحبة أصدقاء لها، حاسرة الرأس، مكشوفة الصدر، لا يغطي مفاتنها سوى القليل والنادر من الثياب، كما أن شربَها الخمرة أو التدخين وتعاطيها الليل والنهار مع الرجال، وفعلها أشياء أخرى، لا يعني أبداً انحلالها وتهتكها، فهي الأكثر شرفاً بمفهوم الشرف العام وحياءً وعفةً هنا. الآن تأكد لي أنَّ الثياب الطويلة التي تغطّي الجسد العربيَّ المسلم، وحديث بعضنا عن الاسلام والطهر والنجابة وغضِّ البصر وو.. الخ، ليست سوى كلمات لا معنى لها في سيت. فما أن سنحت الفرصة، رخيصة لأحدِ أصحابنا من بلاد العرب، حتى هبَّ مداعباً المرأة التي كانت إلى جواره، لكنها استهجنتَ فعله واستقبحت سلوكه. لقد طاشت بعيداً سهامُ فكر صاحبنا العربي، وخابت ظنونُه وفسدَ معتقدُه، الذي كان يقول بان القليل من الثياب على جسد المرأة يعني فيما يعني أنها متاحة للآخرين.

في سيت، تعلمت أنْ على الانسان خلع ما يشاء عن جسده أو تجميله بما يشاء من الثياب، والألوان، والوشوم، وشرب ما بدا له حلواً سائغاً، وأكل ما لذَّ له من أطايب الطعوم ومصاحبة ما شاء ومَنْ شاء من الرجال والنساء... لكن ذلك لا يعني بيع الجسد، او السماح لتطفل الآخرين عليه، مثلما لا يعني التجاوزَ على حرياتهم، ولا يعني مصادرة آرائهم. الجسد هنا مفصول، وشخصي جداً، والعقل والسلوك مسئولية مشتركة، يعني ضمن ما يعني البناء والتطور وكمال شروط الانسانية. وفي سيت يقول لك كلُّ من تصادفه في الصباح «بنجور» ويبتسم. لذا عليك أن تقول للجميع بنجور وتبتسم. لأن الناس من اللطف بما لا يصدق. ولأن الحياة تجري لمستقر لها، ذلك تقدير الحب والتسامح والعيش المشترك الكريم.

لا تبحث في سيت عن سيارة أجرة (تاكسي) لن تجدها، الناس يستقلون القطارات والباصات، والشوارع الهادئة الجميلة في تنقلهم بين مدينة وأخرى، أو هم، النساء بخاصة، على الدراجات الهوائية والموتوسيكلات متنقلات مع أطفالهن، يمشين المسافات الطويلة على الساحل الأخضر. مدينة سيت، هي إحدى مدن إقليم البروفانس، الذي يمتد من خليج مرسيليا حتى الجنوب في قوس حجري، ينسرح باذخا لينام في الحضن المتوسط الابيض، الذي ظل أزرق شذرياً حتى ساعة مغادرتنا.

الخلجان الكثيرةُ كثيرةٌ، والطبيعة تتفنن في ابتكار ملاذات آمنةٍ للعاشقين، وهي تسعى منذ أن هدأت مجاذيفُ محاربي أسبارطة وأثينا وروما، مع الماء الكسول والريح الخضراء، لتبتكر المعنى تلو المعنى، كيما لا يغادر المدينةَ عاشقٌ فرحٌ بقميص نوم صبيّته، التي تغفو على

ذراعه. بين هذه وتلك، على الساحل، قرب الصخور البازلتية وقفتُ، منصتاً لعربة الفجر، وهي تعدو مسرعة بخيولها الصامتة الألف، مع الموج والنوارس وبيارق الصيادين، قرب مقبرة الشاعر بول فاليري، حيث يكون للموت طعم الفازلين تحت الأسرة: في الحادية عشرة، من صباح كل يوم، حين تكون الشمس كاملة على الصخر والعشب. هناك سيتخذ الشعراءُ التائهونَ الطمأنينةَ مقاعدَ ومفازات.

النساء اللواتي عجزن عن استمالة الرجال، في ليل سيت القصير، ملأن أذرعهن بالأساور وآذانهن بالأقراط، ولأن الصيف تطاول على الأرصفة والحدائق، فقد ألقين بالزائد من ثيابهن على الاسرة، وأتين مستمعات للشعر مصغيات للألوان، في الأمتار القليلة التي تركها الزاهدون، بين الأشجار، التي توزعت الأرض يقيم الشعراء امسيتهم، جذور الشجرة العملاقة تعيق انتظام المقاعد، وما المظلات هنا لاتقاء الشمس، هي بيضاء حسب، كذلك تكون النوافذ، فلا يطل منها أحد، هي سلالم للعشب الذي يجاهد يتسلقها، أما ما تساقط من الحجر هنا وهناك، فهو الوقوف الضامن لانهيار المسرات، هو المساحة الفاصلة بين الترويع وما نتوقعه. كل ما أتيح لنا من الرصيف لا يسع قصيدة واحدة، هم جعلوا القضبان قريبة، هم أوقفوا المنشدين على الجادة، الى المقهى، حيث يجلس العازفون.

بين مبيت الشعراء في(آوز)أسفل مدينة فاليري، حيث يمتد البحر غير منتهٍ هناك، وبين (بلاس دي بوفر) مبنى إدارة الفستيفال مسافة تقطعها على الأقدام إن شئت، وإن لم تشأ فأن (لوغون) سائق الميني باص، عازف الأوركوديون لن يتأخرَ عليك، أبداً، هو أكثر من منضبط في مواعيده. ولأن الشمس لا تهددُ أحداً، لأن الطريق أجملُ حين تقطعها ماشياً، فقد كنتُ أتخذ من قدميَّ دابةً، ما غلبني نومٌ وتأخرتُ عن موعد الحافلة. آنئذٍ، سيكون طريقي محاذيا للبحر الكبير، وسيطول وقوفي عند محال بيع السمك وأكشاك الصيادين وباعة أدوات العوم والحبال. عالم من شباك، وسنارات، وأعواد، ومظلات، وقبعات. في السوق التي لا يفصلها عن القناة سوى شارع ضيق بممر واحد ورصيف، كنت أتأمل سلال الصيادين الملآى بالسمك، والمحّار، والقواقع، وهي تفرغ، أو وهي تُحمل مملوءةً إلى عنابر السوق.

على الجهة الثانية من القناة، كانت تصطف عشرات القوارب الملونة بأشرعة صغيرة أو بدون أشرعة، مع عشرات المطاعم والمقاهي والكازينوهات. وفي منتصف الطريق بين مكاتب الطيران والمقهى الصغير، الذي غالبا ما كنت أجد الشاعر اللبناني بول شاؤول متخذا منه مجلساً، لا يكلمه أحد فيه. هناك حانة صغيرة، اسمها حانة (الصحبة السيئة) غلب اللون

الأزرق على مقاعدها وشراشف طاولاتها. حتى ان المناديل الورقية البيض كانت تُطوى على هيئةِ مصابيحَ صغيرة، لتبدو أكثر زرقة في الكؤوس، فهي تتموج في البلّور البحري. لا يجلس في الحانة هذه إلا الكرام من الرجال والنساء والولدان الشقر، ولا يؤمها إلا الاسوياء المعروفون منهم. كلّ جلاس الحانة فخورون، معتدون بأنفسهم، انيقون جداً، ذلك لأنَّ الازرق يصبح سيداً في الفضاء المحتشم الفسيح.

فجأة، وفي مساء أحد الآحاد أغلقت البلدية الشارعين المحاذيين للقناة، سيارة حمراء طويلة قطعت الطريق هذا، ومثلها قطعت الطريق ذاك. لذا كان لزاما على باصات النقل العام أن تسلك شوارع اخرى بديلة. وفي بحر من ساعتين أو أقل، تمكن أصحاب المطاعم والكازينوهات من نصب أكشاكهم في الهواء الطلق، هم يستعدون لحفلة باربكيو في مثل اليوم هذا، من كل اسبوع. لذا، هيأوا الطاولات والكراسي والمظلات الملونة والأواني، بما لا يتشابه بعضها مع البعض الآخر، قبالة الساحل هذا والساحل ذاك، وقبل حلول المساء صارت الضفتان تعجّان وتضجّان بالآلاف من سكان المدينة وغيرهم. كرنفال ألوان لا تعد، وموائد مشتهاة بلا نهايات. الكؤوس على الطاولات ممتلئة ونصف فارغة. النبيذ بطعم المساءات الحانية، أما الاحمر منه فسيّدٌ على الالوان كلها، رائحة الشواء تعبر الضفة هذه الى الضفة تلك. فرق الراقصين ومجموعات العازفين تجوب الشارعَين، فرحُ الجمهور وسعادة أكبر من أن يرسما في لوحة، أبعد من ان يُخطّا في ورقة. أرأيتم مدينة تقيم حفل باربكيو بهذا الحجم.

في الأحد الماضي أكل أهل سيت من اللحم ما لم يأكلوا من قبل، وشربوا من النبيذ ما لم يشربوه من قبل. رقصوا وغنوا وتعانقوا، قبّلوا بعضهم وضحكوا، قرأوا الشعر وتصفحوا جرائد المساء ثم آبوا، تركوا أصحاب المطاعم فرحين منشغلين يُحصون نقودهم.. لم أرَ سكران يخط بقدميه في الأزقة الطويلة الكثيرة، التي سلكها العائدون من ضفتي القناة. الناس في سيت لا يثملون أبداً، لا يشاكسون ولا يقهرون غريباً، لا يتجاوزون حدود السكر التي أباحتها المسرات، حتى وإن أمسى ماءُ القناة نبيذاً قراحاً.

ولأنني مخربش على المقاعد منذ زمان، لأنني آخذ عن الورق والحبر مسراته، فقد كتبت، من مكاني تحت الشجرة:

في عُشبِ الحديقةِ ما يكفي، لتقول: بأنَّكَ كنتَ هنا أمسِ..

على الطاولةِ، في حانةِ «رسَّام العاهرات»

الكأسٌ تدلُّ على أنَّ الساعةَ هي الأقربُ إلى الفجر،
وأنَّ لونَ النبيذِ يَذهبُ بحمرةِ العينينِ إلى المرآةِ وينام...
لكنهُ لا ينفي عنكَ آلامَ الرَّقبةِ، والعبثَ بأصابعك،
تعدُّ ما تقضى منها.
الحقيبة مفردةٌ على الكرسي،
حيث لا أحدَ يُكترى لانقضاءِ الليل،
في الساعة الموحشة هذه..
وقد رحلت قافلة المنشدين.
أنت العائدُ ببعضك من هناك، شعركَ أبيضُ طويل،
ثيابك لم تُغسل منذ أيامٍ عشرة.
لا يخذلك حلمٌ لستَ صاحبَه، فلا تكن إلا للمرج النديِّ سِيقةً،
المقاعدُ كنايةٌ عن الانتظار، حديث عن الأمل والسراويل الضيقة،
الطاولات، اصابعُ تقاطعت شجناً وقبلات،
سغبٌ وفرطُ شوق، تعب وحقائب،
يأخذها العتّالونَ لمسراتهم، فدع القميص بنسائه الثملات،
دعه، لا تأبه لبقعِ النبيذِ عليه، ودع الهاتف لا يرن،
أقفله، ليس معك ما تتذكره اليوم، سوى ما يتأبدُ من هزائمِك غداً.
الساعة فجرٌ وقطاراتٌ لا تعود،
فما عليك إلا أن تأخذ الطريقَ ذاتَها،
تلك، التي لا تستبيّنُ من أشجارها إلا ما كان نخلاً وقبّرات.
أضعتُ المكان الذي يفترض ان اقرأ فيه بعضا من قصائدي، كنت صحبة عزيز أزغاي،

الشاعر ومصمم الاغلفة، الذي قدم من المغرب، وفي مطعم بول فاليري، حيث يتناول الشعراء طعامهم، هناك، تعرفت على الشاعر السعودي إبراهيم الحسين، اعلمتني هيئة المهرجان، بأن موعد قراءتي سيكون في المساء، وكنت أظن أنَّ حديقة الكتاب (لوشاتودو)هي المكان الوحيد للقراءة. اختفى أزغاي وظل محمود خير الله، الشاعر المصري معي، ذهبنا الى الحديقة فلم تكن هي المقصد والمكان، صعدنا شارعا لا يؤدي ونزلنا آخر لا يفضي ايضاً، ثم دخلنا بهو كنيسة مغلقة المدخل، لكنني وبعد لأي اهتديت، وحدي الى المكان الذي سأقرأ فيه، لم يكُ مسرحاً ولا قاعة للشعر، هو مكان وسط المدينة، أخذت الجهةُ المنظمة شارعه وتركت الرصيف للمارة، وهكذا بين البيوت، وأمام أبوابها مع وجوم الأطفال وامام أعين الكلاب، لكن بعيداً عن أصوات السيارات رحت أقرأ.

سيقرأ الآن، عزيز أزغاي، الذي يتقن الفرنسية. فجأة، تدخل امرأة فسحة الشارع، من خلف يافطة منصة الشعر، لكنها ما ان رأت شخصا يقرأ الشعر وقفت صامتةً ثم أمرت زوجها بالصمت، كان أزغاي يقرأ بالعربية، هي لا تفهم ما يقول بالتأكيد، التهذيب هنا قضية أخرى، يقول صديقي التونسي محمد الغزي، الشاعر: الشعر واحدٌ مما تستعين الشعوب به على قضاء حاجاتها.

كان أدونيس يرتدي قميصاً أزرق مع بنطلون من الجينز، يغطي ذلك بكنزة سوداء من قماش كتان في الأمسية التي قرأ فيها، لم تكن قاعة، هي فسحة من بيت قديم، سويت أرضها، تذكرني بالمساحات التي يستخدمها البعض كمواقف للسيارات. رفض الجلوس على كرسي أزبيلا، المترجمة الى الفرنسية، ترك المقعد ذا المسند الخشبي لها وجلس على شيء، مما تجلس عليه النساء في صالونات التجميل. ضجيج ما في صوته حين يتكلم الفرنسية، لكنه حين قرأ قصائده بالعربية كان الاجمل صوتا وجرسا ولغة، كان يستعرض أفكار قصائده في حوار بالفرنسية مع ازبيلا وبعض الجمهور الفرنسي، ومثل أكثر الكبار بدأ متلعثما وانتهى أنيقاً متحدثا وشاعراً. كانت إدارة المهرجان تحرص على أن يتحدث الشاعر عن قصائده وأفكاره ثم يعرّج قارئا بعضها، كانت المحاورة تسأله أسئلة شخصية وعامة، وكان يجيب بمنتهى البساطة، تحدث عن الشرق ومشكلاته مع الإسلام السياسي وعن الربيع العربي تحدث، وبدا لي يائساً من تغيير قادم في خريطة الاحداث العربية. أمسية أدونيس كانت الامتع بين أمسيات الفستيفال.

كان واضحاً أن إدارة مهرجان الشعر تعاني من أزمات مالية، فقد حجّمت الجهاتُ الداعمة

من مستوى دعمها، وواضح أيضاً، أنها تستعين بمساعدين آخرين، وأنها تستنجد بمن يقدّم لها ما يؤمنُ الاستمرار. تحدثت السيدة ماثي، مديرة متحف بول فاليري، رئيسة المهرجان، عن التوسعة في الدعوات والمشاركة، التي لم تعد تقتصر على شعراء الدول الواقعة على المتوسط، فقد كان معنا شعراء من أوروبا الشرقية والأميركتين وآسيا.

أكثر من خمس نساء بعمر الفتوة والعطر، هنَّ من يقمن على إدارة الجلسات وارشاد الشعراء الى أماكن القراءة، لا يتقاضين رواتب ولا مكافآت، هنَّ متبرعات لإدارة أعمال المهرجان، وعلى مدى أكثر من أسبوع كن الأكثر توهجاً ومقدرةً في مساعدة الشعراء والاكفأ في تقديم ما يؤمّن نجاح الجلسات الشعرية، وليكون مثابة للتائهين من الشعراء، أمثالي، فقد نصبت إدارة المهرجان كشكاً صغيراً، سُوّيَ بمنتهى البساطة من الخشب والخيش، فهو مغطى بالقماش الأبيض، تقف عند بوابته امرأتان كبيرتان، كانتا دليلنا الى أمكنة الفعاليات، هناك أكثر من خمس فعاليات في اليوم الواحد، وفي أماكن متفرقة من المدينة، وأنك لتجد كتاب دليل الفستيفال في كل مكان بسيت، فهو عند صاحبة المقهى، وعند سائق الباص، وبائع النبيذ، وراقصة الملهى، وأماكن وقوف الباصات، وعند محطات انتظار القطار الى مونبليه ومرسيليا. ليس مهما أن تكتب وتقرأ الشعر في سيت، أنت تجده في الأزقة الضيقة، وفي ثياب الأطفال، وحبال المراكب عند القناة، وفي كل مكان تريده مجلسا لك. ستسمعه من فم كل من يقرأ، ويعزف، ويغني. الشعر قضية في الوجود الإنساني، وهو مادة لحديث الحب والامن والسلام.

اجلسْ حيث تريد، على مقعد من الخشب الزان، على الكرسي الحديد أو على الحجر المهجور عند الرصيف واكتب، ثم اقرأ سيسمعك الناس، يقفون عندك ويصفقون، لن تسمع كلمة سخرية من أحد، ولن يحتج أحد على وقوفك أمام داره، أكنت فرنسيا ام غير ذلك. هم يثقون بالشعر، ففي ظنهم، أنْ ليس هناك من يدّعيه، لأن الشعر أكبر من قضية ينسبها أحدهم الى نفسه، يأتيها ولمّا تختلج في روحه وتفعل أفاعيلها فيه.

وفي الحانة، التي قرب حديقة الكتاب، حيث تكون خدمة شبكة الانترنيت ممتازة، وحيث يطيب لي شرب كأس من نبيذ فرنسا العظيم، اتصلت بسعدي يوسف، أعلمته بوجودي بسيت، قال: استمتع بأيامك الفرنسية يا طالب، ومن لندن حملني التحيات الى السيدة (ماثي فاليس بليد) مديرة متحف بول فاليري، مديرة المهرجان. في أيام الشعر الأخيرة، كنت أجدها جالسة تحت الشجرة القديمة، التي تزهر غزيرة أيام المهرجان، وتظل أزهارها تغمر

الارض طوال الأيام التسعة، التي هي عمر الفستيفال، تزهر، حتى لتبدو سجادة صفراء، صفراء شاحبةً من شوق وانتظار.

ابتدأ صباح الخميس 30 تموز ماطراً، كثير من الغيم اصطف على الأشجار والمباني، ظل يسقط من الفجر، ومن أعلى الجبل راحت تهب نسيمات باردة، انستنا شمس الامس التي طلعت من البحر رطبة ساخنة، يتلطف الله باهل سيت كثيراً، فقد آلمهم أني مرضت أمس، لن أنسى المرأة التي أصرت على عدم ذهابي الى السكن، حيث أقيم بالضاحية الهادئة الجميلة (أووز) قبل أن يبلغ اطمئنانُها غايتَه عليّ، ولم يفلح معها إصراري في الذهاب وحدي، فقد كانت تضع المنديل تلو المنديل منقوعا بالثلج على جبهتي ورقبتي، ثم تنظر في عيني وتسألني ما إذا كنت بخير أم لا؟ فأجيبها أنا بخير، لكنها تظل تتطلع في وجهي، باحثة عن سبب لمرضي، أنا الذي شربت أكثر مما يجب من نبيذها الأحمر المتاح، الذي ظل على الطاولة، ولما آخذ كفايتي منه. وفي كل مرة، كنت اعلمها بانّ دمي خال من السكري ولا سبيل لضغط الدم الى قلبي، وقبل أن تختم الشمس قصيدتها عن البحر، اقنعتها بصديقي المصري، الشاعر محمود خير الله صاحباً لي الى المنزل، فأعتقتني من لطفها، الذي لا يوصف. لم يلق اللهُ السكينة في قلب أيِّ أم، مثل التي القاها في قلوب أهل سيت. تتسلق شجرةُ الكرم شباك الطفلة الصغيرة، كما لو أنها تدلها الى السماء، ومن البعيد، أمام الجبل يأتي صوت الجرو دالاً على الغابة، أما نسائم الليل فهي التي تدلُّ الأسماك على صدفات أمهاتها.

كل صوت للمطر كان على صفيح المظلات،

كل فاختة تمرُّ مسرعةً لغصنها،

كل نافذة تنفتح في الصبح تبشّر بمطر جديد،

أيعلم البرتقالي أنَّ أجمله الذي على الاعمدة،

أتعلم الدفلى عند المدخل، أنها الأكمل بين البتلات؟

في المطعم، الذي لم يكن مطعما من قبل، بين الأشجار الثلاث التي سدت أزهارُها مجرى المياه عند المغاسل، تأتي سيارة صغيرة، هي المطعم كاملاً، تُفرغ القدور والاواني، الملاعق والكؤوس، وعند الطاولة التي أقامها النادلون أمس، وقفتُ، أشرب النبيذ أحمرَ، والنبيذَ أبيض، فيما المكرونة بالقواقع، كانت تذكرني بحانة القوارب الثلاثة، التي بنابولي. كان عازف الساكسفون الذي رافقني في القراءة من السلفادور، خلاسي بجديلة طويلة. أخذنا

البحّارةُ بنجّاداتهم البرتقالية الى صدر القناة، التي منها الى البحر، هناك حيث التقيت المغنية الاوبيرالية، (السوبرانو)، مغربية الأصل، فرنسية الحضور(ماريا) بقبعتها العريضة، وبمكياجها الفاضح. كان الجمهور من النساء والبحارة والعابرين. ومع صوت المجاذيف وكركرة الموج والريح التي تهبُّ صرت أقرأ، ما كنت وحدي، هناك أكثر من شاعر بقارب، يحيطه بحارة بنجادات برتقالية، جلس قبالتهم يقرأ الشعر، يحدثهم عن الليل والموج والنساء والنبيذ.

الجمعة 31 تموز 2015

الساعة العاشرة الآن، انا وعزيز أزّغاي ومها العتوم الأردنية ننتظر (لوغون) السائق الفرنسي، الذي سيأخذنا بسيارته الى الفستيفال، كانت الشمس تشرق باردة وسط سماء زرقاء بغييمات تتقطع هنا وهناك، تمر المغنية الفرنسية الجميلة، بثوب يشبه ثياب النوم، وردي، هي ممتلئة الى حد ما، زوجها طبّال مغربي، وابنهما أقرب الى السمرة، كانت قد شاركتني إحدى الامسيات، ومن المنصة ذات الدرجات الثلاث، في الزقاق، الذي لا يبعد عن حانة الحي الصغيرة غنت(فوق النخل فوق) ثم تلتها بمجموعة موشحات، مما كان لنا في الاندلس. اليوم، وفي السكن الذي يجمعنا، تعلمتُ من الشاعر الفرنسي، شاعر الغجر، الذي يسكن مونبلييه كيف أقطّع الخبز اليابس، أرغفة الشعير الطويلة، وكيف اشقها نصفين، فأطلي القطع بالزبدة والعسل واغمسها بالقهوة التي بدأتُ أحسنُ إعدادها.

مطر وبرد بما لا يصدق، نحن في آخر أيام تموز. ابتدأ المطر قبل ساعة من مغيب شمس أمس، ولم يتوقف عند الواحدة في الليل. دائما، في سيت هناك شتاء مضمر، لم تكتبه الآلهة على لوح الفصول، كنت صحبة الأصدقاء الشعراء والفنانين: امجد ريّان ومحمود خير الله من مصر، وعزيز أزغاي وعبد الرحيم الصايل من المغرب، ومحمد الغزي وعبد الوهاب الملوح من تونس، بشير شلش من فلسطين، بشير الذي ظل ينثر حبات الخشخاش على تبغه، ثم يلفها بأوراق، تشبه أوراق البافرا، التي كانت عندنا، وكانت(فانيلي ودولفين) البنتان الجميلتان تستمتعان بتدخين التبغ الفرنسي مخلوطا بالحشيش الفلسطيني، الذي جاء به بشير من هناك، صحبة الشاعر الاسرائيلي، اليهودي، اليعازر كوهين مع ثلاثة شعراء، بينهم امرأة، كانوا قد قدموا بطائرة واحدة من إسرائيل فإسطنبول حتى وصولهم الى مطار مرسيليا. بشير مواطن عربي، في الداخل الإسرائيلي، كنت التقيته ثانية بمطار إسطنبول، حيث تأخرت طائرته، أنا الذي كانت طائرتي قد تأخرت في سيت يوما ونصف اليوم، انتظر الآن الطائرة

التي ستقلني الى إسطنبول.

**الليلة الأخيرة بسيت**

اليوم، وقد مضت على الرحلة السنوات تلك، لا أعرف كيف اهتدى الناس لحديقة الكتاب(شاتودو) التي في بعض معانيها (خزان المياه) فقد امتلأت الحديقة الكبيرة، ذات الشجرة العملاقة بالمئات من أهالي سيت، غصت الكراسي بهم وفاضت الأرض بمحبي الشعر، إذ لم نكد نحصل على رقعة خضراء صغيرة نلقي عليها أجسادنا، ومن خلف الشجرة تلك، يأتي صوت المغنية المغربية شجياً، عذبا، ممتلئاً رقة، لا إله إلا الله، محمد رسول الله، لا أعرف كيف موسقت الجملة هذه مع طبيعة المكان العامة، حيث يشرب الناس النبيذ على الطرقات وفي الحدائق وحيث يجلسون هنا، أنا الذي ملأتْ جوفي كؤوسٌ ثلاث أحسست بان الشعر حياة. الناس يفترشون الحديقة، كثيرون هم الذين يحملون كؤوسهم ويتخطون الرؤوس، المحبّون يحملون زجاجات النبيذ الى حبيباتهم، يغمرونهن بالقبل، والعشاق الأكثر جرأة يغمسون أكفهم في قمصان حبيباتهم، يكورون ما أنْهَدَ، وتكورَ، وضجّ، ورقَّ، واحمرّ، وازرقَّ، وانتفضَ، وأنتعظَ، واستطالَ، وتقوّسَ، وهاجَ، وماجَ، وتفتّقَ، وانحرفَ. ليس الشعر ما نكتبه هو ما نعيشه، هكذا، بدا لي موضوع الشعر كتابة وحياة.

من البعيد، البعيد جداً، يأتي صوت الكمنجات المغربية، وتأتي النايات الافريقية ايضاً، تلك التي ظلت نائمة البارحة، يأتي صوت ماريتا المغربية محمولاً على ثوبها الأزرق، حيث تنسحب مويجات المتوسط عليه. الآن يعزف الاسباني سلفادور على جيتاره، كان رافقني في جلسة البحر بسفينة الصيد، وجلس على الحجر في مقبرة بول فاليري، لم يكن سلفادور وحده هنا فقد رافقه عازف الجلو، لا أعرف من أي البلاد جاء، لكن شيئاً من الامازون ظل عالقا بأوتاره، ها قد أخذت الموسيقى الحديقةَ بأشجارها وناسها الى حيث الخلجان العميقة.

الذين كان تبغ سجائرهم رطباً صاروا يفتحون اللفافات ويدسون فيها ما يصعّد من سحرها ونفورها، والذين لم يجدوا في النبيذ كفايتهم طلبوا الكأس والكأسين من الشمبانيا..وهكذا، ربما بعد يوم او يومين، سيغادر الشعراء المدينة التي علقت جغرافيتها بقمصانهم مثلما علقت روائح التبغ، ففي الغد ستخلو المدينة منهم، ستخلو المقاهي من أسمائهم وتنسحب الحانات ذاهلة، فقد رحل الضجيج ولن يبقى بسيت من ظل أمينا على الحجر والماء والشجر مثلما كانه الشعراءُ الأسبوعَ ذاك.

يقول شاعر فرنسي: «لو كان الله موجوداً لوعدنا بحياة أجمل، حياة أبعد مما وراء الأرض»

هكذا قرأ شاعر فرنسي قبل قليل. يقول محمد الغزي، صديقي الشاعر التونسي، بان الشعر الفرنسي اليوم تخلى عن الموجودات الى ما هو ابعد من الأمكنة والاسماء والاحداث، الى ما هو كوني وانساني ووجودي. فيما كنت منشغلاً أتأمل الـ شاتودو، وقد ملئت بالبشر وأقيمت عليها المنصات، وامتدت اسلاك الصوت والانارة الى ابعد نقطة فيها.

**الشعر متاح مع النبيذ على العشب**

في الحديقة، في الليلة الاخيرة، وقد امتلأت بمستمعي ومحبي الشعر والموسيقى، هناك من قدم من أقاصي سيت ومن مونبليه أيضاً، حملوا الفرش والبسط الرخيصة والمقاعد الخشب البيضاء، وجاءوا بأطفالهم وحبيباتهم، كانوا هنا قبل ساعات من بداية حفل الليلة الأخيرة، كل اتخذ مجلسه، لا شأن لهم بك إن مررت بأحدهم وهو يقبل حبيبته، لن يتحرج منك أحدٌ وأنت تمر حاملاً كاسك، عابرا مخاتلاً، محاولاً ان لا تسقطها من يدك. الحانات وما يشبهها نصبت خارج حدود الشاتودو، أبعد من أطراف الشجرة العملاقة. النبيذ والبيرة مع أطباق الطعام والسندويشات السريعة متاحة للجميع، بأسعار أزهد وأقل، أقول: كان النبيذ علامة تدل على الشعر وتؤكده أحيانا، أما الموسيقى فهي أداة لملاقاة الزرقة، التي تحجبها غيوم المساء البعيدة، الآن قرأ أليعازر الإسرائيلي قصائد عن السلام، لكن، لا أحد من الشعراء العرب صدقه أو صفق له. كنت أردد مع نفسي وانا ممتلئ غبطة: «تستطيع أن تجمع أكبر عدد من المستمعين، لكنك لا تستطيع ان تجمعهم على التهذيب». شاعر فرنسي يقول: كلما أقرأ شعري يهبط الليل / كلما أقرأ شعري تعوي الذئاب.

مع ارتفاع صوت الآلات الموسيقية الامازيغية والصحراء المغربية الكبرى، كان هناك صوت ما، يشبه صوت الريح، كأنه ينسكب من قحف جمجمة أحد الضواري، لعله صوت ذئب مما نسي عبد الرحيم السِّمْلالي في حقيبته، يوم غادر صحراءه الى بلجيكا، عبد الرحيم، عازف الكمان، الذي ظل يحدثني عن هجرته الى أوسلو. ومن جوف الشجرة يأتي صوت حبيبة المغربية، تخطاني الى الشارع، عبر خريطة الشاتودو، التي رسمتها البلدية بأكشاك باعة السجق والنبيذ، كانت الصبية التي الى جانبي قد أخذت حضن أمّها مخدعاً ونامت، تكدس شعرُها على وجهها مثل قبضة من عطر اشقر كثيف، تدلى مخموراً بين الساقين الضائعتين في العشب، كانت الام قد أفرغت كأسها الأخيرة، ها، هي تنتظر من يقودها أبعد من سور الحديقة، قدمت لي كأس نبيذها الزجاجي، لم أعد بها الى الآن، فالطريق الى بائعته صعب ومستحيل، لو كنت أعلم لأخذت كأس البلاستيك كي لا أجبر على إرجاعها.

كانت أضواء المسرح تتقد وتتغير مع صوت الشاعر، الذي صعد بقصيدته. الأبيض لمن قدم من المتوسط، والاخضر لإيطاليا، والجبلي لإسبانيا، والازرق لفرنسا، لكن بلاد العرب وحدها كانت بلا ألوان، وكان العراق بي خارج حدود الامل. تذكرتُ الشاعرة الاسبانية، الكاتولانية (تونيا باسولا) التي ظلت مصرةً على أنها كتولانية وليست اسبانية.

الناس نيام، نعم، نيام، ناموا، نامت النساء ونام الولدان الفرنجة، اخذوا ما يكفيهم من الشعر، شربوا الكثير من النبيذ، أكلوا اسياخ السجق كلها ودخنوا ما كانوا بحاجته من التبغ وناموا، كانت الحديقة منامة الذين لا وقت لديهم لكي يذهبوا لبيوتهم، كانت الشجرة الكبيرة مأوى للذين احتضنوا حبيباتهم، وكان العشب ملاذا للذين لم يجدوا في الازقة والحانات ملاذاً.

**القصيدة على يافطة، بين حائطين**

كان محمد الغزي هو الذي نبهني الى المقطع الصغير المجتزأ من قصيدتي(حرب أخي) والمكتوب على يافطة بأحد الازقة: «لكنْ، جُلَّ ما نريده أنْ لا تنبح كلابُنا إلا ضيفاً».

لا أعرف كيف تم اختيار المقطع المحمول على خصوصية الكلب لدينا، في الشرق العربي، فهو(الكلب) الذي ينبح الضيف ليبتهج صاحبُه، وهو النجس في التشريع، وهو الدال على الخطر إذا نبح في ساعة متأخرة من الليل، فالكلب مفهوم مختلف هنا، في الشرق عن وجوده وحضوره في الاسرة، عند أهل سيت، النساء والرجال يصطحبون الكلاب في تجوالهم اليومي، وهو جزء من الشخصية، مثلما هو دال على الوحدة والشعور بالغربة، كذلك هو لقضاء الوقت والتسلية والشعور بما ليس في ذهن الشرقي العربي المسلم. بصراحة، كنت آمل لو أن الذي اختار المقطع هذا قد اختار غيره.

في الثاني من آب سافر معظم الشعراء المدعوين، فقد اختتم المهرجان أعماله في اليوم هذا، أخذ الشعراء طائراتهم ورحلوا، أنا المغادر الأخير، طائرتي بعد ظهر الغد، الاثنين 3\8 لذا سآخذ القطار من سيت الى محطة فيترول. الطريق بساعتين ويزيد قليلاً، ومن هناك سيحملني الباص الى المطار بمرسيليا، لا تبعد المحطة عنه سوى بضع مئات من الأمتار، لذا سيكون عليَّ أن انتظر ست ساعات، ريثما تقلع الطائرة تجاه إسطنبول، التي آمل الوصول اليها عند التاسعة وخمس وأربعين دقيقة، سأنتظر في المطار هناك حتى الرابعة وخمس وأربعين دقيقة من فجر يوم الثلاثاء 4 آب، أغسطس، حيث ستكون الطائرة قد أقلعت باتجاه البصرة، ربما أجدني هناك بحدود السابعة والنصف صباحاً. ياه، ما أجمل ان تدخل البيت بعد مغيب الشمس بقليل.

## بالقطار على الطريق بين سيت ومرسيليا

على امتداد حقول الخوخ الذي سيصبح في العلب، على موائد الإفطار بباريس، الى جوار حقول العنب الذي سيمسي أنبذة للسكارى، كانت الأرض بين سيت ومرسيليا شجر سرو وجبالاً مغطاة بالعشب، أما السماء فتزرق هنا، لكنْ لا شمس هناك، والطريق بالمركبة تمر أعلى من سكة القطار، يتوقف أو يتمهل بحسب مشيئة الذاهبين والعائدين، لكن الحصى في مونبليه يتنزل مخفورا من صفحة الجبل الى السهل، هو نفق يمر القطار به، وهي مونبليه التي تسكنها الام ماريا، السيدة التي اتخذت المدينة مسكناً، منذ أربعين عاماً، قدمتها من لبنان، فكانت عونا لغويا لي بسيت الشعر والنبيذ وبول فاليري، هي التي ظلت تزقزق معهم لي، في كل متجر وحانة.

الفرنسيون يأخذون من الزهر الكثير من ألوان لغتهم، السنتهم قصيرة، وبلادهم واسعة، لا البحر يحدها ولا السماء تنقصها، ومنذ لا أحد يتذكر من السنوات اتفق أهل مونبليه على أنْ لا تطاول المنازل أشجارها، ظلت خفيضة مثل حقول الكروم، لم أر منها إلا ما كان بعيداً، فالقطار يسرع بي، وأنا لا أرى من المنازل إلا ما صار قرميداً وسروا وجبالا.

حقول القمح محروثة، فالشتاء يبّكر مرسيليا الآن، عبر غيمة في البعيد، والافق بارد تلطع الشمس أطرافه النائيات، كل أشجار الكرم التي على اليمين في الطريق الى مرسيليا كانت من حصة الحانات، والكؤوس مؤجلة في الحقول الخضر الآن، تدلت العناقيد وجفت الأرض، التي تثمل كلما دخلت صبية حانة، وفي (اوشون) تندفع أشجار الحور لكأنها تشتبك مع سكة الحديد، ومن ثغرات في المشبك الذي يسور المحطات تطل أعراف الشجر مازحة، ورقاء وخضلة.

لم أنم في المقعد الوثير بالقطار النازل الى مرسيليا، كنت كثير النوم في القطارات التي تصعد الى بغداد وتنزل الى البصرة، لكنَّ التعب هدني فنمت، لا أذكر كم نمت، لكنَّ صوتاً هامساً أيقظني، سمعت المضيفة الجميلة تقول: ها قد وصلنا محطة لونيل(Lunel) ظل الطلاب نائمين في مقاعدهم، والى حيث الغيم والافق الأخضر ذهبت حقول الخوخ والكرم، وسوى سيدتين ثرثارتين لم أجد أحداً ينظر في زجاج العربة. كنت الجائع الوحيد، أنا لا أكلم أحداً. حين بلغت محطة فيترول، كان الليل قد هبط، وكانت السكة قد همدت قليلاً. وفي طريق عودتي من الليل بسيت التي سأغادرها بعد ساعتين، كنت أردد مع نفسي: «لا اعلم ما إذا كانت المدينة تتلون كل يوم / كل ساعة / لقد قضم الورد الفسحة المتاحة لي من الرصيف».

# في يريفان بأرمينيا..

## شجرة بتولا صغيرة بين أخماتوفا ويسينن

لو أننا أخذنا الباص الى تبريز التي بإيران لأمكننا الوصول الى يريفان عن البر، ولكانت الرحلة طويلة جداً، لكننا، أستعجلنا الطائرة من طهران الى هناك، فكانت بساعة ونصف وتزيد قليلاً. كان سام، الفتى الارمني، المولود في الاهواز من أم عربية مترجمنا، ينتظرنا في المطار، ومن هناك سارت بنا المركبة الى الشقة التي استأجرها لنا في الطابق الثالث عشر، والمطلة على شارع سخاروف، الشارع بأشجاره الالف يمتد حتى ساحة الجمهورية(هارابراك) كانت قطرات مطر الفجر مازالت عالقة بأسلاك الكهرباء، تساقط من الاوراق وحواشي القرميد. لم نعرف بعد طريقنا في المدينة الباكية، الشعب الارمني فقير، بسيط، ينطوي على ماضٍ مازال يعاني من نكبات طوال، ليس آخرها الجنود الاربعة الذين قتلوا على الحدود مع تركيا قبل اسبوع. كانت تظاهرة صغيرة، لذوي المقتولين قد وقفت ساعات من النهار، تحت المطر قبالة إحدى البنايات.

ما كانت يريفان مدينة حديثة، وليس فيها من المباني الجديدة إلا القليل، مازالت الحقبة السوفيتية هي العلامة الفارقة في شكل العمارة، السكن عامودي، قديم لكن لمسات الأناقة ميزة بادية في المدينة، وكان المطر الذي عاد ثانية قد القى بجماله على المنازل والازقة والساحات، ربما، بدت المدينة لي كذلك، لأنني أحب المطر كثيراً، فلا غبار ولا نفايات ولا ضجيج ايضاً، وسوى خربشات المطر على الشوارع والارصفة الضيقة، سوى ماسحات الماء على زجاج المركبات لا تسمع شيئاً، كان علي الخروج تحت المظلة لجلب ما نحتاجه من طعام وشراب، لكنه نزل همياً مدراراً فأعاقني عن الوصول الى كثير من غاياتي الكثيرة، لذا عدت، بقليل منها. عدت وكنزة الصوف على رأسي قطعة ماء، كانت ليلة السادس عشر من تشرين الثاني من العام 2014 باردة جداً في يريفان، فما ان مضت من الليل ساعة، حتى اكتست الشوارع بالثلج، الذي همى خفيفاً أول الامر، لكنه تعاظم في الفجر الثاني، كان النبيذ شفيعناً في الليلة تلك.

قبل أن أغادر البصرة الى ارمينيا كان المخرج خالد السلطان قد قال لي بأن الارمني إذا هم بالخروج من البلاد فأن طريقه سيكون بمواجهة جبل أرارات، لكنه لن يقوى على مغادرته الى

الحدود، فهو منجذب اليه بقوة خارج طاقته، أرارات والارمني توامان، وحين ذهبنا صحبة سام، الى بحيرة سيفان كانت تلوح قمة الجبل البعيد، خلل الغيوم والثلج، من هناك كنت أعاين آلاف الاكف والاصابع وهي تلوح مغادرة، أو وهي تتراجع آيبة، وحين دخلت متجراً للتحفيات، خارج العاصمة كانت خزائنه وأرففه مليئة بأشكال جبسية لأرارات، مدونات التاريخ في ارمينيا تكشف عن شعب ظل يبحث عن وجوده بين الامم التي تكالبت السيطرة عليه. عند تمثال الأم الارمينية وقفت ألتقط الصور، أتفحص السيف والذراعين اللتين تمسكان به. كل عربة سوفيتية عند ساحة النصب كل طائرة هليكوبتر هناك كانت تحدثني عن تاريخ لشعب لم يبق من سكانه سوى ثلاثة ملايين انسان، فيما غادر ضعف العدد هذا ليعيش خارج الحدود، في رحلات عذاب طويلة. تذكرت الممثل المسرحي الارمني البصري كارين أرشبير، الذي أكمل جواز سفره من سنوات، ورتب كل ما يتعلق بأمر عودته الى يريفان، موطن اجداده لكنه عدل عن الفكرة، ظل أرمينيا وبصرياً حتى يوم موته، الارمني منجذب بطبعه الى الارض والدم ورائحة المقبرة.

يوم الاحد أخذني سام الى السوق، ولأن الشمس كانت باذخة ذاك الصباح فقد طاب له أن يدخل الكنسية، فدخلت معه، تقدمني قليلاً فيما بقيت انا خلفه مع حشد المصلين، الجالسين والواقفين، ظل يحرك كفيه ويتمتم بكلمات لا أفهمها. مضى وقت طويل وهو واقف، ما شئت لأكلمه فيه، قرأ في قرطاس صغير وردد نشيداً وذهب للمذبح يتوسل هناك. سام لم يبلغ الثانية العشرين من عمره بعد، لكنه حين استدار الي كانت عيناه حمراوين وبدمع، هطل، كثير، وكانت وجنتاه داميتين، لا أعرف كيف أدراي حزنه ودموعه، لكنني اكتفيت بأن أشيح بوجهي عنه قليلاً، كيما يتماسك ثانية، ما سألته عن أسرار دموعه وحزنه، أنّى لي ذلك. هل كنت حزينا أنا؟ نعم، هل أخذتني دموع سام الى جبل أرارات؟ ربما، لكنني، حين صرت معه في مركبته الصغيرة وفتح المذياع على أغنية يحبها اختفت اسئلتي ورضيت منه بابتسامة واحدة.

كان سام في الليلة الثانية قد برَّ بوعده لنا واصطحب معه امرأتين بعد الليالي الصاخبة التي كنا نمضيها في الديسكو مع أصدقائه من النساء والرجال. كان بحق طالبا مجتهداً في المعهد العالي للموسيقى، يعرف العربية والفارسية والارمنية والكثير من الروسية، وحين طرق الباب سمعت صوت امرأة أو أكثر، وفي صالة الشقة عرّف بنا، كانت أحداهن قد تجاوزت الثلاثين قليلاً أما الثانية فلم تكد تبلغ العشرين بعد. لا أنسب له من أفعال السوء شيئاً، فقد كان يؤمن من عمله هذا كلفة دراسته واقامته في يريفان، وإن كان قد استغفلنا بدرهم أو درهمين، فهذا

مما يتعرض له السائح، ذو الدراهم الكثيرة. كانت الأولى خليلة لصاحبي أما أنا فقد كانت حصتي من الصغيرة ما فيها من النزق والضحك والثرثرة. الحق، كانت قد تحدثت كثيراً وبصوت أعلى مما يجب، وضحكت اكثر، في سلوك لم يعجبني أو أنني استهجنته، حتى أنني قلت في نفسي: «كيف ستمضي الليلة مع هذه الفصوعة». كانت الشقة من غرفتين، صغيرة وكبيرة وبصالة ومطبخ، في الغرفة التي اخترتها سرير لزوج وزوجة مع مكتبة باللغة الروسية، وبعد الكونياك والنبيذ الارميني الشهير قادتنا الخطى الى غرفتينا، لم يلبث صاحبي طويلاً، فعاد. سمعت اصطفاق الباب خلفه، مثلما سمعت وشوشة الماء في الحمام. لم تخلع صديقتي بنطلونها الجينز حين تمددت على السرير، اكتفت بخلع قميصها حسب، وما كنت خارج ظنوني السيئة بها، هذه المرأة المزعجة، قلت لنتحدث قليلاً، كانت انجليزيتي تعينني الى حد ما في التحدث والفهم، أما هي ففي المرحلة الثانية، تدرس آداب اللغة الانجليزية، بالجامعة الاوكيرنية، تأتي ليريفان، تعمل في الملاهي والمراقص، قلت إذن لنتحدث عن الادب الروسي، فذكرت لها أسماء مثل بوشكين ومايكوفسكي ويسينن واخماتوفا ودستوفسكي وغوغول وو ثم خضنا في تفاصيل أكثر دقة، فتحدثنا عن قصيدة (الكلبة التي أخذوا جراءها) ليسينن وعن القرنفلات الثلاث لأخماتوفا، وعن معطف غوغول وجرنا الحديث الى الرواية والقطعة الموسيقية والبولشوي فكانت غير مصدقة، بأن يكون أحد زبائنها من العرب، محيطاً بكل هذا.

قالت: لأكرمنكَ بما لم أكرم به أحداً سواك الليلة، فذهبت، حييةً الى ركن قصي في الغرفة، خلعت سروالها، بعد أن أطفأت النور، فتمددت معي مثل شجرة بتولا صغيرة، سحبت ذراعي تحت رأسها وراحت تسمعني الدانوب أزرق، لعلنا أمضينا الساعة والساعتين هناك، في الجغرافيا التي عثرت عليها، لا أعلمك كم مضى من الليل وبجعات جايكوفسكي لا تني راقصة في جسدي، وغرانيق ايتماتوف تحلق في سماء الغرفة التي جمعتنا من خطأ في جرس الباب، من لفظ بذيء في الصالة، هل أقول بأنني رأيت دموع اخماتوفا في عينيها، أيما والله، كانت حزينة وبلا سعادات، حتى لكأنني جلست طويلاً قرب موقدها في سيبيريا، وكما لو أنني لامست وتراً في سمفونية جسدها الراعش، كنت دخلتُ معها غابة الثلج، مثلما دخلت معي غابة النخل والشمس، ولأنني على الحياء الذي لا أريد تجاوزه، فلن أبوح بأكثر من ذلك.

حين استوينا على مقاعدنا في الصالة، سألني صاحبي عما أخرّني، فأعلمته بما حدث، قلت: الشعر يخرس الالسن، ما هي بعابرة ليل، إن هي إلا امراة في قصيدة، شجرة بتولا في سرير.

قال سام بأنه سيأخذني الى متحف الكونياك في صباح الغد، وأن المسافة بين شارع سخاروف، حيث شقتنا، الى المتحف بأقل من زختين من المطر. من عند شباك قاطع التذاكر اخذني الدليل السياحي الى سلم، وسط قبو المتحف، ومن الحديقة الواسعة كنت المح عربات نقل النبيذ القديمة محملة بالدنان الكبيرة، في دالة على قدم المكان، يقول الدليل إن المتحف هذا كان معصرة للنبيذ، يملكها أحدهم، أمتلكته الدولة في الحقبة السوفيتية، ثم أن المعصرة تحولت الى أكبر مصنع للكونياك والنبيذ في يريفان، وكان بحق معلماً لا يضاهيه معلم في العاصمة الهادئة. ومن سلم بطانته من الخشب الصقيل هبطنا الى الطابق الأول تحت الارض، في القبو، كانت الاضاءة بالكاد، ثم أنه كان يضغط زرا فيضيء قدر ما يريد ان نرى، في الطابق كان حجم الدن لا يقل عن حجم الصهريج، الذي نراه في الشارع، لكنه من خشب الجوز القديم، وكنت أقرأ تواريخ مثل 1950، 1951، 1956 وهكذا، بمعنى أن هذا الدن عبئ في التاريخ هذا.

قدم لي كأساً صغيرة من النبيذ، ليست أكثر من 30 ملم، قال إن عمرها 60 سنة ثم غادرنا نازلين الى القبو الثاني، وهنا رأيت الدنان ممهورة بالأعوام 1910، 1911، 1914 وهكذا، كانت مغلقة ومحكمة بسدادات من الخشب، ولا شيء من مواسير هنا، كان كل شيء يشير الى زمن ما قبل الحرب الاولى، لا أعرف كيف حفظت الدنان هذه ومضى الزمن بطوله وهي في مأمنها هذا، ومن زجاجة قدم لي كأساً ثانية قال إن عمرها تجاوز 90 سنة، كان شكل البار الذي جلسنا فيه كما لو أنه انتزع من الغابة، فخشبه تقليدي، لم يجر النجار عليه الكثير من النشر والقطع والطلاء، كان المكان معتما أكثر ورائحة النبيذ لا يقاوم لها سحر. ومن هناك خرجنا الى الشمس، وقد بدت الحديقة لي قطعة من الفردوس.

وفي بار صغير، لكنه حديث وجميل، مضاء ما فيه الكفاية أقعدني ليتحدث عن صناعة الكونياك والنبيذ، قال بأن شجرة الرمان مقدسة عند الارمن، وأن روسيا تستورد كميات كبيرة جداً من الكونياك الارمني، ثم أنه اطلعني على حاويات تقف في باب المخزن، قال إنها تنقل النبيذ والكونياك الى روسيا والدول الاخرى، وقبل أن تهدأ انتعاشتي بالكأسين الاحمرين جاءني النادل بكأس الكونياك، فكانت بذات المقدار، قال إن عمر الكأس هذه 30 سنة. انتهت جولتنا فأخذنا المصعد خارجين الى متجر صغير، يبيع صاحبه ما نريد من النبيذ والكونياك، كانت الاسعار متهاودة الى حد ما، انتقيت من هذه وتلك ما طاب لي وخرجت، كانت يريفان مدينة أجمل من قبل وكان المطر يغذي ارتعاشة جسدي، في اللحظة تلك، أردت ليدي ان لا تظل عاطلة من امراة، لكنَّ الليل باغتني عند باب العمارة.

ليس في ارمينيا مدينة كبيرة أخرى بحجم يريفان، ولما أقلتنا السيارة الى بحيرة سيفان، كانت البحيرة متجمدة تماماً، في الثلج لا تبدو السياحة ممكنة، قال سام لنذهب الى أقدم كنيسة في المنطقة هذه، ولأن الثلج كان قد غطى السلالم الحجرية فقد خشيت أن أقع. كانت امرأة عجوز تأخذ من فسحة شاغرة في المرقاة موقفا لها، وقفت تبيع الحلي الكاذبة والقلائد والاحجار الملونة، كانت اتقت البرد بالكثير من القماش، فتجلببت الصوف، لكن يدها ظلت عارية في الريح وكان الثلج يلون مفرقها، تبضعتُ منها ما امكنني، قلت أذهبي الى مغارتك، لئلا يحاصرك الثلج، كان فمُها أزرق فتلفعه بايشارب من الخز.أحمر.

حين كانت الطائرة تمر على جبل أرارات، في رحلة العودة من هناك، كنت رأيت الثلج يحفر ندوباً على سفحه، قافلاً، عائداً الى الارض التي لا تريده بعيداً، كان تلفت طويلاً قبل ذلك. وكان التراب بحمرة وصفرة لا تطاقان، هو مزيج من الشمس والدم والانتظار.

# إلى عاصمة الصفويين بإيران

## سوسنة ضائعة على الطريق الى أصفهان

على الارصفة التي ليس الصفصاف واحداً من مباهجها، تقف امراة وحيدة، تسال الذاهبين الى النوم عن سوسنتها الضائعة، لتكن حفنة الضوء التي انطبقت على الرمل. كن البرق الذي يدل عليها، كن أول الواصلين الى هناك. أسبغ وضوءَك بما تستحم به المرايا التي مرت على شعرها. للجسد صلاة لا يأتيها الا من آمن بدنٍ قلبه حانةً. فكن الدِّنَّ الذي قال فيه أبو نؤاس: (ما زلتُ أستلُّ روحَ الدِّنِّ في لطف -- وأستقي دَمَهُ من جوفِ مجروحِ / حتى انثنيتُ، ولي روحانِ في بَدَنٍـــ والدِّنُّ منطرحٌ، جسماً بلا روحِ) كن الدِّنَ الذي يتَطهرُ بمِغرفته السقاة، ولا تنوشه يدُ الآثمين. عند النهاية السعيدة للنهر، ستَجد باذري القمح يتوسلون الطريق خيرا بك، حقولهم خضراء مثل أدعيتهم لك بالسلامة.

ما كنت لأقصدها، في الرحلة المتعبة الطويلة، لولا جملة صديقي، الشاعر جمال مصطفى، المقيم في الدنمرك الآن، والذي طالت اقامته في طهران، قبل أن يُقبل لاجئاً، ومن ثم مواطنا هناك، فهو يقول، وبلسان فارسي: «لولا تبريز لكانت أصفهان نصف الدنيا». هي أصفهان إذن، الطريق التي تمرُّ بالأهواز عبر بادية عبادان والمحمرة وأم الحجار وأم الغزلان والقصبات الأخر، وهي التي تترك عندها الفلاحية والقرى التي كانت إيالة الشيخ خزعل الكعبي. الريح تبرد والشمس تذبل، كلما صعدنا مرتفعين، فما كان طينا وقصبا من الارض أمسي رملا وأثلاً، لكننا لم نبلغ البطائح بعد، باعة التمر المُعْسّل الى جوار باعة السمك، أعلم، بطبيعتي الخصيبية أنَّ التمر لا يتأثر بالروائح، وكل ما في البرية من حجر وشجر وصمت يذكرنا بالطريق الى أندمشك وديزفول، فالثكنة التي على يمين الطريق ما زالت تدلُّ على هزائم وانتصارات، كانت السنوات قد دفنتها بترابها، هنا، حيث لا يتخذ السائحون مقيلا بين العربات، يمرُّ قطارٌ وتبتعد غيمة وتتثاءب مسافات.

خارجون من الأهواز، صاعدون الى أصفهان، نحن الثلاثة، خصيبيين، من البصرة، عبد الوهاب وصالح وأنا. في البدء، كانت شيراز وجهتنا، فارتضينا بأصفهان وجهةً جديدة، وبالجبال مرقاةً اليها. تبضع السائق لليله الطويل ماءً وأغنيات فارسية وقال: إنَّ الطريق إلى هناك تبدأ بكأس خمر، كرعها فكرعنا معه بعضاً منها، فكان المغربُ موعدنا. تقول يافطة:

إنَّ رامهرمز ليست رامشهر، ولا أعلمها إلا صادقة، غير ان الهضبة خلف السكة الحديد تدلنا على مبنى من الحجر، سنسكنه ساعة من النهار. قدّم الرجل لنا البيض مقلياً بالزيت والبصل مقطّعاً، ومضى، يُعدُّ الشاي، كان الخبزُ آذريّاً، وكانت الاقداح من الصوّان. نقوشٌ لا حدَّ لها تزيّن المقابض والسكاكين.

على اليمين حقول الشعير خضراء، تصلحُ لمن يطلبها نزهة، لكنَّ حقول القمح تذهّبها الشمسُ على الشمال، سالت السائق أغنية عن الحصاد، فحرك المؤشر ساخراً، ولا اذكر انني طلبت منه التوقف عند غابة الحور، التي آنستها العام الماضي. كان طائرٌ من خشب، أبنوس، يزيّن مدخل المسجد، لا، لم يكن هلالاً، كان طائراً حسب، أحسنتِ الريح صنعاً اليه، فهي تستوقفه للعابرين في النهار، الذين لم يجدوا الوقت كافياً لإتمام صلاتهم. ومن محطة الوقود، التي نصفها مطعم، ابتدأ الجبل، لكنَّ الطريق بمسار واحد والشجرَ شحيحٌ على الجانبين، وسوى باعة البطيخ لم نصادف أحداً. العرب الفرس أو اللّرُّ العربُ، سكتوا عن مفاخرة المعاني، فلا جواري ولا غِلمان في البرية هذه، والضريح الذي مازالت رايته خفاقةً، لا يعني أحداً، مرَّ العربُ الإماميون، ومرَّ الأحناف الأحوازيون، فما أوقفتهم منارته، هم يسلّمون على الشمس التي ستغرب عما قليل.

نحن لم نبلغ سلسلة الجبال التي هبط عليها الغيم بعد، هي تذهب بالصخر والعرفج الى خانقين ومندلي وتعبر حِمْرين الى الشام، هذه الارض بلا خطوط تبدو، لكنها كانت موحشة ذات يوم، يقول بطن من تميم إن قوافل الميديين والبارسيين والاخمينيين والصفويين كانت تعبرها الى السهل البابلي العريض.

لا اسمي السائق بائع خمر، ولا مؤجر السكن قوّاداً، فهم عوان بين هذا وذلك، أنا لا ابحث في الخلاصات عن معنى، فما في الوقت متسع لظلال الأسماء والمسميات. تفتقُ المركبات في الجبل جادة الى أصفهان وامشي. وتكتب السناجب على الصخر أغنية وأنام. يطبق الجبل على حجارة السور من جهة البحيرة، لكنه ينفتح كلما كانت رائحة الشواء قريبة، تتخطانا المركبات الكبيرة ساعة ننشغل، متأملين ما يتدحرج من الطير في الفضاء، وعلى بعد شجرتين من دكانة بائعة الفطير بالخضار، أوقدت صاحبته في مدخله ناراً، فيما ظل المطر يقرض المسافة بين المقاعد والطاولات، هناك، اخذنا قيلولة ما بعد الشاي، فالأسفلت طويل الى أصفهان. ليل بهيم لا نعلمه، يعبر الينا من خلف الزجاج، وما هو بليل، هو انطفاءة بليلةٌ في الشمس، ابتلعها قطيعُ ماعز في البعيد، وفي منحدر الصخر، قبل ان تلامس اقدامنا تراب

(بوجان) آوانا مطعم يقدّم صاحبه اللحم مسيّخاً على النار، جلسنا متقابلين، على السرير الحديد، وكانت الطريق الى القرى رطبةً بمصابيح المركبات.

## -2-

في مقهىً يؤمُّهُ السائحون ساعة الظهيرة، بأصفهان، طلبت القهوة تركية، كانت النادلة تتلفعُ بإيشارب ابيض يقرِّبُ وجهَها من النور، راح ينبعثُ من مصباح الطاولة، تقول بأنها تحبُّ التين طازَجاً، وأنَّ حبيباً لها، يعشق النبيذ، يصنعه والده في (لاواسان) التي غرس الجبلُ غابة كرومها، كانت تشير الى جهة في الشرق نائية، فيضوع عطر وتضطرب قبّرةٌ في صدرها، كانت لا تجد في القميص الأزرق كامل حريتها. السائحة الألمانية تفتح باباً هو الاول في المقهى، هي تقرأ في كتاب نيتشة، لعله (هكذا تكلم زرادشت) فيدخل غوته، وتهبُّ نسائمُ الراين. كنتُ أحدّثها بما في لساني من لفظ الانجليز عن شمس البصرة المحرقة، التي تبعد عن المقهى قروناً. وقفنا، ننتظر إحداهن تخرج من دورة المياه، وكانت الشجرة العريضة تغطي آماد المقهى.

وفي الباحة، تحت الشجرة، التي تفصل كشك بائع الحلوى عن المقهى، أوقفتني تحدْثني عن ميدان الولاة الصفويين، تقول: كان صوت المؤذن يتصادى في جنباته، وعند خوخاته المئة سمعت جلبة الملائكة. فتشير الى بلاطة من الرخام، تتوسط المسجد الكبير، أنعم النظر في قراطيس لها، هي صور ميدان الحرب، الذي استحال منتجعاً. أقول:(ميدان إمامي) فتصحح: (ميدان نقش جيهان) تقول: هذا، الذي يركض الصِّبيةُ فيه، صاعدين ابلغ نقطة في النهار، نازلين بحيرته التي تمورُ دِعةً وزرقة. أنا اكلت الفالوذج بطعم التوت المجفف، من صبيةٍ، ما زال طعم اللبان بفمها عند مرقاته الثانية. ليس المصلى ما يريده أهل أصفهان في أويقات تنزههم، ولا الحدائق، كان الرواق الطويل ما يقصدون.

يصير المبنى في الليل سوقاً، تميس النساء في أواوينه العريضات، وعلى عشبه يحظى المحبّون بما في قلوبهم. وفي (بارك صوفيه) كما هو بلفظ أهل أصفهان، ظلَّ الماءُ يتنزل من الجبل مضاءً بشمس الواحدة بعد الظهر ورائحة الورد والنعناع، وحتى النهاية السعيدة للأسبوع، ظل يتدفق بلورياً من فروج الصخر، يصل مجالس المتنزهين من جهة تباعدت مقاعدُ جلّاسها. كان الولد الأصفهاني قد بلغ بِنَا نزهة الليل وأخَّر فينا نزهة النهار، آيته، أنْ لا أحد يبيع النبيذ يوم الجمعة، فكنا الأصبر على ذلك، وكانت المصاطب خالية، وها، لاحت

نُذُرُ البرد في الستائر وعلى الأجاص. ولأننا بلا أسئلة كبيرة، فقد أطل من شرفة في المقهى قمرٌ أصفهاني حزين. قمر لا يصله الناس إلا من ثلمة على الرصيف، ولكي تبلغ أنوثتها تأتي امرأة آخر الليل، تدخل بيتاً مما ستهدمه البلدية بعد عامين، هناك، حيث سيكون رجلٌ، تلفع بالصبر طويلاً، أخذ عن الصنوبر العاطل درساً في الانتظار.

كانت الطريق الى(كاشان) بساعتين من أصفهان، وكانت الشمس قد أحسنَت رفقتنا، فكنا كلما اجتزنا غابة، ابتكرت الارض غابة أخرى، ومن مُنجرد اهوجَ في الصخر، تخرج منه المركبات الى الاوسترادو، استوى جبلٌ وحيدٌ، بقمة من الثلج، يطلُّ. أوقفنا بائع المظلات بين شجرتين، هُما الوحيدتان قرب عمود الضوء، ومثلما تنفلت من يدِ الافق غيمةٌ، تركت الصبيّةُ شعرَها باذخا على مقعد الباص، ومضت الى النوم. كان قميصها الذي انتزع من شجر الغابة أخضرَ، فستقياً، أقول لصاحبي: «إن المسافة بين مظلة شرطي المرور ومركبة بائع الفاكهة بوحل كثير. يقول إن المطر يتوعدنا بالطول، وكان السائق يتفادى الاحراش في أويقات ما بعد الظهيرة.

يقول متن في التاريخ: «إن الشاه رضا بهلوي أسقط بوشاية من زوجته حكم أحمد مرزا القاجاري، في كاشان، التي أمضينا النهار بأزقتها نقتفي مغازل الحرير وأنوال السجاد، ندوّن أسماء معاصر الورد. ولأنَّنا لن ندخل المستحم قبل توقفنا في السوق الكبير، لذا، كانت الريح التي ينشئها مطرٌ بعيدٌ وتهب باردةً، قد أعادتنا ثانية الى الشتاء، نحن الذين لم نأخذ حيطتنا في البصرة وعبادان. ومن شارع طويل، مورق ومزهر، قادنا السائق الى مستحم (أكبر أمير) لعله آخر زعيم قاجاري، كان قتلَ بين الماء والحجر، قبل نحو من قرنين من الزمان. كان باعة ماء الورد عند المدخل قد أكملوا مفاجأتنا. تذكرت ناصر خِسرو في (سفر نامته) ربما، أخطأت أعدُّ دكاكين باعة الورد والنيلوفر التي على جانبي الطريق، والتي لا تنتهي كلها بالمستحم.

لم أحفظ أسماء قدور النحاس الكبيرة، التي يَعجنُ أصحابُها الورد الجوري والمحمّديَّ الأحمرَ والسلطاني الأصفرَ مع ما تيسر من النعناع والاهليلج، فقد كانت الانابيق والزجاجيات بألوانها تقف في تحيتنا عند سلال الورد، التي انتظمت طائعة، مثل سناجب محنطة، تحنو على مئات الأباريق الصغيرة. يقول صاحبي: «إن القوارير مشغولة بالنقوش القاجارية، فأقول وبرسوم السلاطين، الذين لم يقتلوا في المستحم مع (أمير أكبر) ولأن الحور ما زال شاهقاً، يرتدي الفتية القاجاريون الانيق من ثيابهم، يشحذون أخيلتهم بما تخلف في ضواحي المدينة

من نساء وأنبذة وينابيع. ويتطيبون بماء الورد ممهوراً بالعطر في الجرار.

## -3-

على طريق عودتنا من كاشان، التي لم نمض في سككها طويلاً، كنت أصغي لغرغرة الفرامل، مستأنساً بما سطّره المطر من ودائع على الزجاج، بما تخلفه الريح من عطر في الازقة. كان سائق المركبة (احمد الأحوازي) يستعيد بنا حياته، التي كانت عند الماء، هناك، بأغانٍ لم نعد نتذكرها، هو يحتمي من غربته، التي تطول على الطرقات بحكايات بالية، مملة، قصائد عن القصب الذي يحترق بروحه، عن الأسماك التي تفرُّ من شباكه، عن الطيور التي لم تعد تحط على أهلة المساجد. عند الحادية عشرة، وقبل أن يكون الليلُ ليلاً في الاسرة، على الطريق الى مرآب السيارات، التي ستعود بِنَا صباح الغد الى عبادان، كنتُ أحتمي من الضجر بأسئلة لا تعني أحداً، مثل بقايا الشتاء التي مازالت ماثلة في المدينة، قال صاحبي إن (الگز) (مَنَّ السماء) أفضل ما تحمله معك من الحلوى، فقلت: لن يُصيبنا منه الا القليل، فقد شحّت النقود، وتراجعت فرص النوم مع النساء، وتضاءلت ساعات السُّكر بالمُزن، الذي سبقنا على الطريق بين كاشان ويزد، التي كانت سبيلنا بالخطأ الى أصفهان، بعد أنْ ضلَّ سائقُ المركبة طريقه، لكنه، لابد موصلنا، سيكون في الثلاجة شيءٌ من نبيذ الجبل البعيد. هذا الجسدُ النَّصَبُ سيجد طريقه الى السرير.

فجأةً، ومن ستارة على الشباك، جنَّ ليلٌ، تفلتت خصل الظلام من كرمة باذخة قرب السياج، خطىً مبهمة حملتني الى (باغ كُلْ هَا) حديقة الورود، ومن هناك الى هناك، أطلتُ مجلسي، أخذتُ الأريكة، التي تركت الصبية الأصفهانية بعضا من مفاتنها عليها وتمددت ثملاً، لا أذكر أنني وجدت نبيذاً في الثلاجة، لكنَّ القمر كان غِرّاً صغيراً، راح يوائم بين البنفسج والياسمين، فيضوع عطرٌ من كل فجٍّ ناءٍ في الحديقة. ولأن المدينة ما زالت في الربيع، لذا ستمر النسائم محمولة برائحة القهوة، بعبق الذاهبين الى جسر خاجو، الذي أكمل بناءه الشَّاه عباس الثاني. وردٌ كثيرٌ يفرّق بين أصوات النسوة هناك، يقول صاحبي إن موسم الرقص باذخٌ عند منابت أقدامهن، ما زالت تجوس الليل، قلت فليتفتت الجسدُ على الأرائك الأبنوس. ومن صبية قرب السياج المورق، يتدلى شعر أصفر، معقرباً عند أذنيها، هي تفتح كتاباً من الشعر لعلّه لحافظ أو لسعدي، كانت النسائم قد عبثت بثيابها كثيراً، وتبدد من كأس أغنيتها ما تبدد على البلاط، كادت السوق تظلم باكرا لولا أنَّ الفتية الأصفهانيين، تبضعوا القبل بطعم الترياق واللبُان. أكان المطرُ مزلاجاً لمساء قلوبهم؟

سماءٌ وحيدةٌ تنفرد بي امام عينيك. أبوابٌ لا اسمّي أقفالها تقودني الى وجهك النديّ، يا أنت، أيتها الغريبة، المشَّاءة على الساحل الاطلنطي البعيد. يكتبني النهار سحابةً، ساعة أقف عند مفازة الذاهبين اليك، لذا، أدمنتُ المطرَ هادياً، عندي ما يكفي من اليأس لماضي الأيام، وكنت سألتك الألم صاحباً للطريق، فكان الحبقُ ما يتكرر من غيابك، أبعده عطراً فيسبقني الى يديك، تقترحين الحورَ اغنية، ها، قد اخذتُ عن اسمائك البنفسج والانتظار. أيتها الباذلة في موقد العطر، استحلفك، بما في ايدي النائمين من الفجر، بما في اقدام العابرين من المحيطات، أنْ لا تدعي للأمل باباً مغلقا، لا تجعلي قميصك سببا للعاصفة، لا تقبلي بالأريكة مشجباً لانتظاري، ما أنا بآخذٍ من النهار أكثر مما يأخذه فستان طفلة على حبل غسيل، فلا تبحثي في زجاجة النبيذ عن لوحة خجلي، أنا من تنفسَ وقوفكِ في شرفات غيابك الالف.

فدعيني احدثك: أصفهان مدينة حلم شاسع، يسوّرها تاريخ صفويٌّ كبير، لست منشغلاً بما في الكلمة من دسيسة الشوفينيين، لكنني، والله مأخوذٌ بما أرى، بما بين يدي وعلى عيني من عظمة ومَنَعَة، أنا لا أقلب حجارة الحاضر بعصا الماضي، ثمة غابة تنتظرني، لم أدخلها من قبل، ثمة مجدٌ جدٌّ متعجلٍ، يتسلقُ السماء، وفي زاوية من المقهى حيث أجلس ثمة صبيّة ترسل سماء عينيها الي، ليس للمباهج حدود في (باغ گلها) ومثلما تتوه غيمة في أفق أزرق خضل، كانت بحارُ الزرقة تنشرُ قواربها في أرخبيل النور، البنات الاصفهانيات، طالبات معهد الرسم، بكّرنَّ بألوانهنَّ، ورحن يرسمن الطبيعة المندفعة خضرة وينعاً.

ولأنها من سهر ومخمل تغفل رسامةُ المعهدِ ايشاربها يسقطُ مائياً، فتنهمر قبضة من الضوء، تغطي خدها، لكنها لا تكترث طويلاً، هي تحنّط اللحظة في قطعة القماش، وتبذلُ ألوانها رخيصة، ها قد أخذت الارضُ سندسها مجلساً، واعدت للجمال فرشاتها الناعمة، ومن قماشة الألوان نزّت خضرٌ من الغصون، وهبت نسائم وانعقدت اواصر، تكرر الرسامة تصحيح سماء اللوحة، هي تعيد الأزرق الى عذريته وتفتح للأحمر باباً، توسعه ورداً، ومن أسفل اللوحة يصّاعد اخضرُ مشوباً بينعه، عشبٌ لا يني الماء يدخله، وها قد بدت لوحة جديدة. الصبية، الرّسامة النابهة تخطُّ فتنتها، تعيد ترتيب الزهر على القماشة، تزحزحُ عصفوراً، تُطلق سمكة في ضحضاح من الماء، تحت شجرة الحور، التي أصبح لوقوفها معنى الان.

لكل أوبة طريق، فلا تترك الجبل الا إذا كنت بلا حبيب، هذا الثلج قفطان رديء على الصخر، الذي راح يتفتت وحشة، وفِي القمة النائية ثلجٌ اخرُ يلوح، فكن اليد والجبين، لتنعم

النظر في الشمس والكلمات، سنونوة وحدأة تذهبان بالأفق ولا تعودان به. لذا تستحدثُ الجبال شواهد يهتدي بها الجوابون، فلا يلتفت أحدٌ الى انحناءة المرج، ظلَّ يسيل خضرة، حتى امتلأت بُطُون الأودية ثغاءً، كانت امرأةٌ من العجم تحمل دلواً لشياهها، هناك، حيث يرسم المطرُ أوردة صفراء على التراب، وتخمط العاصفة السنابل المفردات. أوكلما امتدح بائعُ العسل قواريره، ضجَّ نحلٌ في النخاريب المهجورة قرب عنبر الفاكهة؟. ثغاء بقرة واحدة يكفي، ليعلمنا بانَّ السمن غير مغشوش، عربة أجاص لا أكثر تجعل النهار آمناً. كانت الدبابير تحوم وأغشية الدنان مرفوعة الى الأعلى، وفي السقف مصباح، يوشكُ، ينطفئُ غضارةً. تشدُّ امراةُ النهار رباطا من الصوف حول خصرها، ويرخي بائع السَّمن ما ائتزر في الظلام، هي تقول له: «الليل ملعقة من العسل. فيجيب: والفجر كاسٌ من لبن.

## -4-

ليس للمقبرة سُوَر على سفح الجبل فيهده الليل، كلُّ قبر فسحةٌ لتأمل عشبة تذوي، كل شمعة توقد في الليل دليل الى فجيعة، هكذا، كلما تفتح امرأة باباً يفضي الى دارة مهملة، ترسل أخرى من باذخ كفها قبضة من زهر اصفر، فيشتعل الأفق غياباً. ولأنَّ الرعاة ابتعدوا تقترحُ الكرمة أسفل الجبل طعم كأس النبيذ، فيما يلون الماعز السفح، يفضح شكل سيخ اللحم على النار، وبين الصخور التي ظلَّ يتخطاها الماء، منذ البارحة، ثمة مطرٌ يضوع، يأخذه العطارون الى مستحم بعيد، هناك، حيث يوقظ حارس الينابيع ناياً قديماً. كانت العصافير لمّا تزل لاهيةً بالضوء بعد، احدهم أخذني الى حيث لا أدري، أبدل رائحة قميصي بقطعة من النهاوند. العَجَم، الزرادشتيون، أوقدوا النار مغيظة تحت قدورهم النحاس، وبأباريقهم الفضة راحوا يعبئون النسائم. كل خارج ثيابُه منشاة، كل داخلة في المشهد كتاب عشق.

على الطريق التي الى (لردگان) والأهواز يعلّق باعة لحم الضأن علب معصور الرمان، مع الأسياخ، قبالة ألسنة النار، وفي الأودية الخضر يجري سلسلٌ، ماءٌ الى اجل سيبلغه الفانون ذات يوم، ولان السماء تدخل في الغيم منذ أمس، فقد أتت اوجارها السناجب، أخذت ما يكفيها من الخوف والجوز، ها هي تتطلع من فروج الصخور الى اخدانها، الدببة تتوهمها والعاصفةُ تسدُّ باباً لا يدخل المطرُ منه. شجرة حور عملاقة تزيّن ما ينكره الظلام، ويتفقده فلاح وحيد بين ثنيّات العشب. يستعير العفصُ من الجبل غربته، فيما تأخذ الأودية ثكلها بعد كل عاصفة.

شتاء يطول، تأبدَ في السهوب، يتوعد باعة الكمأة الملثمين. يكمل حقل نور، وتمتحن قبضةُ رمل غيمةً، وعلى جادةٍ، ما عدت أتبينها، هناك، وقفت بائعة الخبز الآذري تطعم غربتها لحماً يابساً. هل كان الوقت ضحى؟ نحن في امتداد الجبل، وقد لا نبلغه قبل انطفاءة الشمس. سيكون ماء، وتطول عتمة، وسيهمد بأوجاعه موقدٌ بعيد. تقول أغنية فارسية: «على الصنوبر تكتب الريح أسماءها، وعلى السفوح الصم يتكاسل ليل طويل». بقصيدة واحدة عن المطر تطلق الأوديةُ نسورها، وخلف شجرة عند الجسر تحتمي بائعة الكرز، كانت مادة الريح قبل قليل، ها قد أبطلت الحملانُ الطريق الى الغابة. في الليالي الحالكات يأتي محاربٌ من السهل، يرتب الحجر سورا الى بيته، يرشد الرعاة اليه، يغرس الجرار القديمة على جادته، التي قضمها العشب. يورق وجدٌ وتزهر قبلات، وفِي بطاقة البريد التي لا تصل، ثمة من يكتب له: احبك. ثمة من لا تبهجه في العاصفة أغنيةٌ عن السنديان.

«فقيرٌ من لم توقظه في الحلم أرجوحة خالية،

ولا معنى لوقوفه على خاصرة الهضبة،

ذاك الذي يجهل ما في كتاب الريح من العناوين،

دائماً، ثمة من لا تهزم تمرده قبلةٌ واحدة،

من لي بذاك الذي، تخذلني أضلعي المئة في توديعه،

فِي الليالي الشتائية، الباردة، هناك،

سيقف من مزّقَ الانتظارُ قميصه الأخير.

دائماً، ثمة من لا تجد لعنقه تسلسلاً بين الجياد».

# آذربايجان.. المدينة أنثى

# قميص امراة غائبة في باكو

أنا لا أنتظر أحداً \ لكنَّ الطاولة من أبنوس!!

أنا لا أشرب النبيذ مع أحدٍ سواي \ لكنَّ النادل جاءني بكأس ثانية

أنا لا احمل نقوداً \ لكنَّ عائشة فتحت الباب \ جاءت بالليل كله

أغلقُ حديث الموسيقى \ فتبدأني بقصيدة لأخماتوفا

كانت بالأسود أجمل \ فصارت تتخلى عن ثيابها

أحصي قطرات الماء التي على كتفها

فيأخذني بحرٌ مالحٌ الى السرير.

على خلاف ما أعلنه قبطان الطائرة التي اقلتنا من بغداد الى باكو، الذي حدد زمن الرحلة بساعتين وعشر دقائق، وقبل أن تستوي الطائرة سمكة على البحر، فاجأتنا المضيفة الجميلة، بندائها: باننا بدأنا الهبوط التدريجي في مطار حيدر علييف، وبذلك ستكون الرحلة بساعة واحدة وخمسين دقيقة. كانت بقايا من شمس ناحلة توشك، تغادر الافق الآذري الرطب، لذا كان اليوم كله للغيم والمطر، نحن في منتصف حزيران، وكنا قد تركنا البصرة لناهبيها، تلهبها شمس محرقة.

حملنا في آذاننا دوي الهبوط ودخلنا صالة المطار، فتذكرت صوت موظفة المطار في بغداد، التي تعلن عن مواعيد الرحلات، تذكرت صوتها الرجولي، الذي أعادني الى نبرة صوت مقداد مراد، ساعة قرأ خبر الاعلان عن توقف الحرب بين العراق وإيران، نهاية الثمانينيات، وهمست بأذن صاحبي مذكراً إياه بأصوات النساء الجميلات في مطارات العالم. كل مدينة تعدُّ نفسها لتكون الأجمل، إلا مدننا العراقية، فالذكورة طغيان، وممارسة الفحولة مَعْلم من المعالم، تأملوا معي صلف البرلمانيات، حدقوا في عيونهن واستمعوا الى اصواتهن وأنعموا النظر في سيرهن وحركات ايديهن.

صار بحكم التقليد أن يأخذنا سائق التاكسي الى قلب المدينة، هكذا يفعل سائقو التاكسيات

في العالم، فالسائح لا يعرف من المدن أبعد من مركزها، نقطة يبدأ منها رحلته، ولأنَّ باكو تعدُّ شوارعها لمهرجان سباق السيارات(الرالي) فقد سوّرت البلدية أرصفتها بالحديد المشبك بسورين جميلين، واحد للحراسة والاسعاف وثان للمتفرجين. ولكي نتحدث عن الموانع الكونكريتية التي أحاطت الشوارع لتحول دون تطاير إطارات السيارات المنقلبة والمحترقة على المتفرجين، فقد تذكرت قبح الموانع الكونكريتية عندنا. لا أعرف من أي طينة عُجِنَ موظفو البلدية عندنا، وكيف انهم اختاروا الرعيان والحوش وعديمي الذوق، ممن لم يمسكوا وردة في حياتهم، ليحولوا بغداد والبصرة وباقي المدن الى الصورة المنتقاة للقبح.

في باكو، المدينة التي تبلغ منتهى أنوثتها عند المساء، ساعة تتراجع النسائم البحرية، وتتعطل اسئلة الجمال، قرب مقرنصات المتحف أو خلف المبنى الحكومي. ساعة تلتقط السائحة الروسية صورتها عند عتبة السوفيت يونيون بار. الذين انتقلوا بقمصانهم البيض من البوليفار هربا من رياح البحر الباردة دخلوا الحانات، يُطعم أصحابُها زبائنهم السمك، مملحاً بالزيت البلدي، هو ذا الحبب، القطرُ يبلل قماشة الطاولة، هي ذي الكؤوس تنز. فلا يميل إلا من كان مائلاً من سكر البارحة، ولا يستوي على كرسيه إلا من كانت طاولته بنهارأقل.

كل المصاطب مشغولة بالنسوة الآن في الميدان الوطني، بالبوليفار، ذلك لأن الولدان الآذريين ما زالوا عند بوابة القلعة، يشحذون اعينهم نظراً من هناك، في الأفق، وعبر المرامي التي كان قدامى المحاربين ينبلون منها يُسمعون بعضهم كلمات المجد، هم يقفون في مرتبتها الأخيرة، حيث يتسلل غيم وتبزغ شمس وتولد فكرة. هم هناك، يؤنسون سراويلهم بفحولة الليل الأول، لهذا ينشغل باعة البورغر، خلف طاولاتهم، بإعداد أكؤس الفودكا، بانتظار عودة الذين هبطوا البحر تواً، أولئك الذين تمتلئ جيوبهم بالموج والنجوم الطارئة. كل انثى في الميدان حكاية عن المطر، كل صبيٍّ دعابة نوم على العشب، تذكرٌ لمن شغلتها الريح عن تنورتها، من نسيت حقيبتها على طاولتك. كانت معلمة الموسيقى تنحشرُ معك في الحافلة، التي أخذتكما الى البازار، هل كنتَ القيتَ على كتفها نصفك الناحل، نعم، وأخذتها الى الحديقة العامة، اما وقد اصلحت سروالها تحت الشجرة هناك، سوّت قميصها عليه، ذلك لأنك عبثت به كثيراً.

تقول التي قاسمتني السرير ليلة البارحة... ومن أسماء آذربايجان، أيضاً: فرواردين بشت الافستي، وحين سألتها عن المعنى قالت هي: ترنيمة الملائكة الحامية. فأنشغلُ، أبحث في المكتبة التي لا يبين من واجهتها سوى سلّمها القصير، عن صورة أخرى، فلا أجد الشجر

بعيداً، وما في المصابيح من نور يكفي لانطفاء عناقين، لفاصلة بين قبلة وأخرى، كنتُ أعدّ نفسي لقضاء ليل أمس دونما امرأة، هكذا رحت أتأمل يدي عاطلة من رائحة الأنثى، أقدامي بخطوتين لا بأربع، وقد بدا لي ذلك ممكنا حين أدخلت يدي في جيبي، أبحث عن رقم هاتف ما، أحاول، اجد من لا اسم لها بين اسماء النساء، هو تكرار لما يحدث كل ليلة، وهو دأب من إعتاد أن لا يشرك في سريره إلا من أحبَّ واجتبي واصطفي، وباكو ينبوع نساء، ومن شرفاتها عليك أن تتقي نار الأكف التي تومئ وتدعوك. فأقول: كانت الظنون مفرطة على الوسادة، وكانت ذراعي التي تركتها في القميص تبحث عن عنق أمدُّها تحته، وهذا الليل يمكرني أسئلةً، لذا رحت ألقي باللائمة على النافذة، تنفتح ساعة تهمل الريح مزلاجها الرخص.

من خلف ستارة الحلم تأتي عائشة، تمسك عروة حقيبتها، سروالها جينز صخري بفراشة زرقاء على خاصرتها، لا تتوقف طويلاً، تسألني ما إذا كنت أملك وسادة شاغرة، فأتزحزح قليلاً، أترك لها من السرير نصفاً، ومن شجني الطويل نصفا، فتأخذني أسئلة وقبلات، ثم لا تني تحدثني عن ثلج مائع في الجبال، عن ريح تصرُّ في الخارج، أنا أسألها عن الندبة التي في بطنها، وما إذا لم تكن جرحاً، تسببت به عجلة مسرعة هناك، حيث لا يتنبه بائعو المظلات، فيختمر كأس الفودكا، تركتُه على حاشية الطاولة، وينهمر ورد ابيض ثقيل، ومن ستارة تغطي خزانة الثياب أسمع صوتها، وهي تنادي على قطيع ماعز ضلَّ طريقه اعلى الجبل، ثم تتهجى الغضون التي في جبيني تقول: أكنت تقتفي خطى الشمسِ في باذخ من النهار؟ أكنت تستعجل الانهار ظلالا وأرغفة، أكنت تستعطي الأشجار أغنيةَ عن الريح؟ فأجيب أنْ، نعم. أنا ذلك كله.

لم أتبينها بين سرب الحسان الذي مرَّ، لكنني رأيتها هناك، كانت تبيع أساورها عند بوابة المتحف، حيث ظمئتُ، أبحث في مخطوط كتاب أسماء آذربايجان القديمة فأقرأ: أتروبيتس، التابعة الجبلية للإسكندر المقدوني، فراواردين بشت الأفستي (ترنيمة إلى الملائكة الحامية) أتريباتاه فرافاشيم، يازامايدي أشاون، أي نعبدُ المدينة المحميّة بالنار المقدسة. لم يبق من نساء الحديقة إلا من لم يأتها حبيبها، فقد خلت المقاعد، وأمحلت الطريق التي ستأخذني الى المنزل، سقطت عصا حارس العمارة، اخذته باذرة الظلام ونام، ها انا أحصي أسماء اللواتي صعدن السلالم وتوقفت بهن، ها أنا أمرر كفي على الاسرة التي خلت في الفجر، اوقظ الذين تأخرت قطارات البهجة عليهم، أصحح الجمل التي سقطت سهوا من شفاه العاشقين السكارى، أرتب موعداً للنساء اللواتي لم يجدن مقعداً شاغرا البارحة. أحمل

مظلتي وأدخل. في الشرفة، هناك، في الجهة التي ستعمها الشمس بعد قليل، قميص امرأة غائبة. لطالما أخفقتُ في العثور عليه.

أفتح الشرفة الغربية - هكذا أجد الجهات- فتهب ريح بحرية، ومنها يلوح قطيع سفن راسية في البعيد، ولكي امعن في تأمل الجهات، فقد فتحت الشرفة الشرقية، التي تطل على شارع ظريفة عليف، الذي ستأخذني منه قدماي الى الساحة الرئيسة والبوليفار وباكو القديمة، نزولا عند البحر ثانية. يقول صاحبي، الذي سبقني الى المدينة من قبل، بأن نفقاً جميلاً سيحملنا الى هناك، وأنَّ اليوم سيكون أجمل في المساء، لأنَّ جميلات باكو يستعرضن فساتينهن وسيقانهن وأذرعهن وما اوتين من سحر وبراءة ورفقة، ساعة يكنَّ على البحر، هذا إذا ما ظلت الريح عاقلة، ولم يلقين بأجسادهن في شاطئه الأزرق، فهنَّ لا يصبرن على الشمس مشرقة دافئة عنده.

تسوّي عائشة شعرها امام المرآة، وتأخذ زينب حقيبتها الصغيرة الى غرفة مجاورة، تعيد ترتيب ثيابها وأقراطها ثم تنشغل بهاتفها الذكي، فأعجب، انهن لا يعانين من جرس الاسمين الضِّدين(زينب وعائشة) يقول صاحبي: الشعب الآذري شعب مسلم، شيعي، وهم يسمّون فاطمة وسكينة وعائشة وخديجة وام كلثوم ورباب ومريم ونور، دونما شعور طائفي، ثم راح يحدثني عن مزارين لاثنتين من نساء عبد مناف.

لا يبعدُ بحرُ الخزر كثيراً عن مزار(بيبي رحيمة)ابنة الرضا، الامام الثامن عند الشيعة، في الضاحية البحرية المعرفة بخريطة الجوجل(Bilgah) والتي يقصدها سائحون كثر، ضمن رحلة ستشمل السباحة في البحر وزيارة المقبرة القديمة، التي مازال الحرف العربي يزيّن بعض قبورها، لتعيد لنا تذكر شرقنا وحضارتنا. ما يفعله الحرف العربي هنا، في البلاد البعيدة هو ما تفعله الطبيعة من سحر، ما يشحذ الُمنى ويدعو لاقتراح وجهات نظر جديدة في العيش، وتناول متع الحياة، التي منها العشق ونزول البحر ومعاينة المزارات وإعادة فهم الحرية وانتاج الثقافة.

النساء اللواتي يزرن الأضرحة هنا، إنما يعملن على وفق آلية الحياة، التي تتيح الحد الأبعد من الحرية الشخصية، بما فيها ارتداء الملابس وظهور إجزاء ما من الجسد، نعم، كنَّ حاسرات وبأذرع مكشوفة، لكنَّ قدسيّة المزار كانت الاطغى، فهنَّ يخلعن احذيتهن عند المدخل، ويقفن باسطات الأكف، متضرعات، ثم ينحنين ليدخلن الدهليز الضيق الذي يصل المرقد، في وحدانية كثيرا ما نشاهدها ببلادنا. ففي التضرع ينفصل الجسد وتتهدج الروح، كثيرا ما

ترتبك أجنحة القلب في الفضاء الذي يبهج. هنا، تتراجع اسئلة كثيرة، فالمحرّمُ صورة وعي وتجسيد معنى، يختلف من مكان الى آخر.

غالباً ما تكون النصب والتماثيل مكانا عاما يلتقي عنده السائحون. وفي إكرام واضح نجدهم يحددون عند أقدام الشعراء والكتاب والفنانين مواعيدهم ويلتقطون الصور لذكرى وفاء وعشق. ثم انه، شيئا فشيئا يصبح نقطة انطلاقهم لمعاينة المدن. وهكذا، كان تمثال الشاعر الآذري (نظامي) المقام وسط الحديقة الكبيرة، في قلب باكو مَعْلما في الفضاء الأخضر الرحب، مكانا ومَحيناً لزيارة المتحف القريب من منصته المطرمحة، فمنه ينطلق الناس الى المدينة القديمة، حيث يستعيد الزائر العربي صورة من صور مَشرقه، كما سيكون بمقدوره الوقوف على العناية الفائقة التي تبديها بلدية المدينة لكبار مبدعيها من خلال الصور والرسوم، التي تزيّن مداخل الشوارع الفرعية والازقة المحروسة بالشجر دائماَ.

تذكّرني معلمة البيانو في مدرسة للأطفال باسمها دائما، اسمها (ليلى) تقول: انا ليلى والمجنون انت، تضحك. وتصرُّ بأن قصة ليلى والمجنون قصة آذرية بامتياز، ترفض انْ انسبها لي كعربي، كمْ وجدتها فخورة بذلك. وفي الليل تسمعني قصائد ليست للمجنون، قصائد عن سفوح خضر، عن ايائل تنام في خواصر الجبال، عن عاشقين يشربان اللبن من كوز واحد.

على البحر، بضاحية Caspian وفي طريق العودة من مرقد (بيبي هيبت) رأيتهم يخطَّون وبالحرف العربي عبارة: مطعم وكازينو( ليلة و 1000ليلة ) الشرق ساحر دائما، والبلاد التي تباكرها الشمس هي الاجمل في الخيال. هناك قطعة من السيراميك ملصقة على جدار أحد الأزقة، يحفر أحدُهم عليها صورة لشاعر. يُسمعك سائق التاكسي، الذي حفظ كلمات من لغتك بعضا من أبياتها. الثقافة تتمرأى في الشارع والتمثال والحديقة والشعر والضريح والصورة والموسيقيّ الذي يفترش الارض بآلته، وتتمرأى أيضا، في الحيّز المبذول من الحرية.

ولأنني، لم أنم البارحة، فقد شغلني شاغل الشعر، أرّقني أنني لم أجد في أروقة المدينة المرأة التي صحبتني في العواصم، هي التي القت شعرها ذات يوم على كتفي، فتلفقتها الريح ونأت بعيداً، تتخذ من الأطلسي مكاناً كيما تمعن بي سهرا وعذابات. فقد وجدتني أخط في قصاصات، أحسبني كتبتها بإغواء الشعر، فكانت هكذا:

بخطى الكسالى النائمين، جاءَني نادلُ المطعم بكأسِ البيرة، مُزبداً.

توقف، تلامسُ أصابعُه قماشةَ الطاولةِ،

سألتُه: ما إذا كانت ساعةُ المسرّة بعقربٍ واحد،

قال: تأخرتْ فاطمة، فتصدّع الجدارُ،

وأنا لا املك في هاتفي صورةَ قميصها الليلي،

وقد حان موعد انطلاق الحافلة الى البحر، فركضتُ. أسوّي خيط الحلم،

احملهُ الى هدْمٍ في زجاجة الشبّاك، أعرفهُ، يتسعُ.

ولأنه بكلماتٍ ثلاث، فقد ناديته باسمه، كلبَ صديقتي الأبيض.

يشتق أهلُ باكو من البحر أسماءً لحاناتهم،

كولسوناتٍ صغيرةً لأردافِ نسائِهم الجميلات.

**

تجتهد البلديةُ، تروّي عشب الحديقة، ترتّب ما تسامق في فضائها من شجرٍ ومصابيح، تعيد للباب ظلفته التي غيبتها قماشة الإعلان. كلُّ باب يصطفق في (مَلَكان باقجة) لا يدخل منه عاشِقَان، ولا يهرب من عناقِها إلا من كانت حبيبتُهُ نائمةً، ولا يدخل البحر إلا من كان نورساً بحناحين من زبد وملح. كلُّ طائر تحت قرميد دارة الأوبرا يبتكر معنى لهديله، كلُّ بائعٍ للنبيذ يومئُ بمنديل أحمرَ اليك.. لذا يترك اهلُ باكو الشرفات مضاءةً، فهم متأخرون مع الشمس، مع الزبد الذي يغمر رصيف المقهى. مع الفجر الذي يولد من نافذة على الكونسيرفتوار.

**

كلما تذكرَ الصخرُ حكاية عن الموج تصببتِ السماءُ زرقةً، وكنتُ سألتقيها موجتَك الناتئة، لكنَّ البحر تراجع في حمّالة صدرك، ونما زغبٌ على ذراع الكرسي في الحديقة. كلُّ المدن مؤنثاتٌ على بحر الخزر بآسيا، لكنَّ باكو بجدائلَ من مطر وبرد، وهي بقميص النوم دائما. يسألني النادل ما إذا أودُّ كاساً ثانيةً؟ فأُومئُ: أنْ، نعمْ. كنت أحصي المقاعد الشاغرة، فلا أقع إلا على ما امتلأت عناقاً وقبلات. ومن مئذنة في البعيد، خلف الشجر والشرفات يهمس صوتٌ: إنَّ الصلاة جامعةٌ.

الذين خفّتْ خطواتهم غادروا الساحة، ولم يتوقف ماءٌ في النافورة، يقول ناظمي، شاعرُهم: حين تكونُ الفردوسُ الأرضَ تتراجع أوهامُ الجحيم. فأقول: وتتسلق شجرةُ النور مدخل مشفى، تعبر أغصانها الدرابزين النّحاس، فيتعرق جَذعٌ صلدٌ في ممرٍ طويل، وتنهمرُ خزامى، ومن فتحة في بابها الخشبي يتدلى عنقود الضوء، حصرماً ما يزال. تنادي المرأة الروسية خليلها، فيأتي الصوتُ مثلَ حبات قطْر أبيض، لا يخدش حياءَ المشفى سوى صوت صديقي الاجش، لكنَّ موظفة الباب تطمئِن الستائر، أنْ لا شيء يحدث، كانت حبّةُ اللُّبان في فمها حمراءَ، تصطلي..ومن رأبٍ في قميصها أتبينُ الحَلمَة بندقةً داكنةً قليلاً، أو ورديّة. هل كان بنطلونها ازرق، ربّما، فالسماء في باكو زرقاءُ منذ أمس، هل كان الوقت ضحى، لا أعلم، فالأيام كلّها ضحى. أزوّلُ رقماً في هاتفي، فيأتي نغمٌ بعيد، يحدّثني عن الذين ما زالوا في الحانة، عن الولدان الآذريين البيض، الذين وقفوا يحصون دموع بعضهم، كانوا بنصف أمل في مرضاة حبيباتهم.

**

يقول جنبلاط، سائق التاكسي، الذي أخذنا الى قوبا: تدريجياً، ترتفعُ جبالُ قفقاسيا، تبدأ بأذربايجان وتنتهي بجورجيا. فأتبينُ الخريطة في مرجٍ أخضرَ بعيدٍ، اتبع خيط الصخر الى البحر الخزر. أدخل مجاهيل الحدود، أهبط جبلا وتهبُّ ريحٌ ويمرقُ مُهرٌ. الطريق من الدُّفلى على اليمين، اما البريُّ النرجسُ فأكمله، الذي كان على الشمال. يقول جنبلاط: وهذا جبل الأصابع الخمس، «خِضْر زَندّا». فأعدُّ نتوءاتِ الحجر الخمسة مصدّقاً، يهتف: (بيش بارماخ).

**

في البعيد، ومن شجر الغابة ينحت باعةُ الجوز بالعسل مومياواتٍ خُضراً، يتوقف عندها سائقو المركبات، هكذا يخدعون السأم على الجادة التي ستأخذنا الى قوبا. لكنَّ الجبالَ الصِّيدَ لم تلح هاماتُها بعد، والمطر فاجأنا، نحن في حزيران اللاهبة شمسُهُ هناك. قال: نذهب الى الشلّال، مرتع الحجر ومن شقوق الغيم ستبدو الشمسُ خائبةً.. نأكل اللحم مسيّخاً بالخبز والشاي، أو بالبيرة إن أردتم، فقلت: بالبيرة أردناه. وفي منعرجٍ من شجرٍ كثيف، تنصّفه دكانةٌ صغيرة، هي مما يتوهمه الفقراء تجارة..تقف امراةٌ بذراعين من عسل وحليب، تسطّحُ العجينَ بغصن من الخيزران أبيض، ترشُّ من بربين الجبل عليه مرة، ومن اللحم الضَّأنَ المُدخَّنَ مرة أخرى.. وعلى قفا طنجرة من الطين تطبقهُ والنارُ تلهبُ، ما أطيب الخبز باللحم عندكم! قلتُ،

وما أطيبه بالجبن والبربين! تقول. وعن قطعةٍ من الحلوى، صادقةٍ، يفترَّ فمُها مبتسماَ، ليس الذَّهب الذي بين شفتيها ذهبا، هو الكرز أصفرَ كان. ولم تكن البيرة تركية، آذرية: قالت. ومن هضمة في الجبل البعيد بدت الصخرةُ لي بطنَ غزال غِرٍّ.

**

في المطعم الذي كان الحورُ دليلنا اليه، تعاظم الحجرُ أسفلَ الوادي، وظل صوتُ الماء مدوّياً، هناك، انتظرنا نادله النحيل، هو يبحث عن فرصته في جيئتنا، تعجّل ليُعلمَنا بأنَّه منذ الفجر كان بانتظارنا. اللهَ نُشهدُ، أنَّا رأينا آثارَ الوقت على يديه، حقائبَ الأمل فاقعةً عنده. فتضيق فسحةٌ في الأعلى وتتسع غيمةٌ في البعيد، كانت الأرض تؤدِّبُ الذين تأخرت بهم المركبات، فتدركنا بائعةُ أسرار الغابة، نحن ما زلنا عند أصيص الورد بدكانتها، ذهبَ صاحبي يبحث في زجاجات العسل عن نحلة ميتة، فصرت اتقلب في زرقة قميصها، نحلٌ كثير حطَّ على الطاولة بيننا، اختفى جبلٌ وانتظرتُ بقرةً تعبر، ومرت قطعان ضوء، وبائعة أسرار الغابة تتوسلني زجاجةً من صبرها.

**

ولأنها لم تنم أمسها الباذخ، فقد جاءت من المطر خديجة، منذ البارحة توقف الكرزُ أحمرَ في وجنتها، ومن السُّحب الداكنة تُنزِّلُ كروانا في صوتها، ما هو بطائر أبداً، لعله تذكّرُ ينبوع قريب. أكان للبهجة معنىً أبعدُ من تزاحم العشب على قدميها؟ أكان في ما تدلى من عُنقِها شيءٌ بطعم النبيذ والكرواسان؟ ومثل وقع كلسون صغير، على كومدينو، كان صوت خديجة يسعى. يقول برعم في يدها تمسّكْ بي، ويهمسُ دوريٌّ خلف أذنها: تعال. كلُّ نزلةٍ في جبل تفضي الى بيتها، كلُّ التفاتةٍ من غزال في تنورتها مقيلٌ عندها.. ومثل قطار في صحراء كبرى، صرت أصرخ: يا أنتَ، يا طالب:خذْ البنفسجَ حبلَ رؤىً، والجلّنارَ رفقةً ومسرات.. وادخل، طأ بقدمك دهاليز النور الأولى، من يُمسك خريطةً للضوء لا حاجة به لمفتاح في الليل، فاطرق بمباهجك باباً أغلقتْهُ امرأةٌ وحيدةٌ في النهار. كلُّ جرس لا يرنُّ قلبُك. وفي قميصك أكثر من تراب لوأد الألم.

**

ولأنَّ الشَّجرَ أخضرُ نديٌّ، تتبعك أعينُ نساء باكو الى فتنتهن، يتعجلنك قبلاً وابتسامات، هنَّ يُصعّدنَّ من الشقوق في تنوراتهن، وما الاكمام بمنزوعاتٍ، حسب، هنَّ أهملنها على الوسائد،

هناك. أما الشَّعرُ فجاثمٌ جثلٌ، ومنسرحٌ طويل، وقد بلغني أنك تعبتَ، تسمّي النساء بأسماءِ المقاعدِ في الحديقة العامة، تهملُ البحر فتجيبك موجةٌ في البعيد، تسأل عن السمك في حانة كانجلري (kangarli ) التي دلك اليها صديقك الروائي فاروق السامر، فيجيئُك صوتٌ في مثل رنّة الكأس: لم ياتِ رائفُ الاشرعة اليوم، معتذرة تهمسُ في أذنك فتقول: أيّ، نعم. ها أنت على سريرها، تبحثُ عن نهاية في سحّاب بنطلونها الطويل، ها هي تكتب اسماء الذين خانوها في الليل.الى مَ ستظل تمسح عن جبينها النهارات، وهي تترى؟ أوقفتها عند بابة المصعد، ومن هناك، ودّعتها بقبلات ثلاث.

يلتقط سائحان اوربيان صوراً لمنحوتات جبسية في الساحة، ضفادع من نحاس اخضرت تحت الماء الدائر، كانت الساحة فارغة إلا من قليل من السياح، شيوخ ونساء كبيرات في السن اتخذوا من المقاعد النائية مجلساً، لم يبدُ لي أحدٌ من الولدان مجنوناً، واضح أن الجنون لا يتم في بلاد تتقدم الحرية فيها كثيراً، هو ابن الشرق الأوسط بامتياز، حيث تُشحذ مُدى الشرف حادة، ويتراجع الجسد بآلامه وآماله. أحدهم، فضّل المرور البطيء، فهو يسحب خطوات فاترة على المرمر الندي، راح يحدث نفسه حديث البورغر بالشاي والعصير، ولعله انتهى، يتطلع في واجهات المحال. لم يبدأ ضجيج سيارات السباق (الفورميلا) بعد، مع أن الوقت صباحٌ، والشمس ملأت أفاويق الساحة.

أسمّي النّدبةَ على ظهركِ قنديلاً، وأدخلُ

نساءُ باكو يتركنَ النوافذَ مشرعةً...

ومن خُطاطة، أسفلَ الصحيفةِ أنبأتُك

بأنَّ البحرَ هائجٌ الليلةَ.. فلا تَدَعِي السِّتارةَ مطفأةً

ـ البحرُ كنايةٌ والسِّتارةُ مجازْـ

وكمنْ يكتفي بالضوءِ أغنيةً عن المطر

إنتظرتُك عند حانة «الموجة النائمة»

كانَ طائرٌ، لم تسمّهِ السَّماءُ، بعدُ

يعبثُ بحبّة الضَّجر في يدي.

وما كنتُ بباذلٍ مِصباحي حتى آخر الليل
سأكتفي بما في كأسكِ من بهجةٍ..
هكذا مثل ت. أس. اليوت: «سيتسنى الوقتُ لي
كي آكلَ خوخةً، وأهبطَ السلّمَ بصلعةٍ أعلى الرأس»
على حاشية السرير، حيث ينام البنفسج
تتركين قميصك..فلا أقع على ذراعك فيه
لذا، ستظلُّ أكرةُ البابِ نصفَ مبللةٍ بغيابك
أبحثُ عن خرائط جسدكِ في ثنيّة الشَّرشفِ
فتقطعني النافذةُ قمراً عاطلاً
ها، أنا ألفُّ حبلَ مسرّاتكِ على عنقي وانتظر
تقترحُ السنديانةُ، في الحديقةِ موعداً
ويجاهرُ مصباحٌ عند المَصطبة، أنْ تعال.
ليسَ في الخشب ما أتوهمهُ مجلساً
هذه الريحُ تُحسنُ صنيعاً في النافذةِ، فلا أذبلُ خلفَها أملاً..
للقرميدِ وجهةُ نظرٍ أخرى عن السَّماء.

# بالقطار... من أندمشك الى طهران

## «خيابونه فُرّوغي- كوجه بنفشه»*
## شارع فرّوغ - - -زقاق البنفسج

شيئاً فشيئاً تعشب الارضُ صاعدة بالقطار الى «أندمشك» وما كان كله عاقولاً، حلفاء وعوسجاً أمسى حوراً ودفلى، وفي قيعة من القصب تركنا الجنوب براياته السود يدخل في العراق فيصيرُ بصرةً، كربلاء. ولأنَّ الطعام ما يزال يقدم رزاً ولحمَ ضأنٍ كثير فقد تعطلت الأرصفةُ، وابتلع الجائعون الشوارع قرب محطة السكة الحديد.

تتحدث السماء عن مطر في الغد، لكنَّ السحب، الغيوم لم تلح بعدُ.. وفي البعيد، على أجنحة الطير، شمس بيضاء تبرق. مضت ساعة ومضى نصفٌ آخر، ولما نبلغ الاهواز، البارحة كنت أقرأ في كتاب المُلحدين، يقول بأن ابن الراوندي مواليد الاهواز، من أم يهودية. يكذّب باحثٌ في البصرة، ومثله في بغداد الخبرَ، لكن ابن الجبائي عبد الجبار يؤكدهُ. القطار يخرج من قيعة أخرى، تسلمه الى غابةٍ، يبعد النخلُ وتبتعد البصرةُ، والشمس ما زالت بيضاءَ يهتف في رماحها المؤذّنون.

عمّا يبحثُ بيرقٌ اسودُ في الفضاء؟ يرحب بنا! وماذا يجعل العرباتِ أكثر غربةً في البرية التي لا يبين من رملها إلا ما كان دريئةً للريح، منزعاً للماء والملح؟؟ أتذكرك صامتة يا رابعة النهار، إما يبلغن عندك الشوقُ، كأنك ما بلغت طهرانَ من قبلُ تحملك السعفاتُ خضراً وتستوي بين عينيك الضفاف.

في محطة القطار، باندمشك، حيث كتب حسين مرتضائيان أبكنار «العقرب على أدراج سلّم محطة أندمشك» ترك المسافرون حقائبهم، أخذوا طريقاً، يبساً الى المسجد. النساء، يقطر ماءُ الوضوء من أذرعهن والشعر أشقرُ، تناثر في باحة المصلى، هنَّ يجففنه أمام المري في الهواتف، ومثلما تستعير الملائكُ أكفَّ النبيّين في الدعاء، صرّن يرفعنها، صحائف بيضاً باذخةً، تلامس السماءَ التي يتنزل من زرقتها الكريستال.

محطات كثيرة توقف القطار الصاعد من آبدان إلى طهران عندها، لكنني كنت أتوقف طويلا عند حركة المسافرين العجلين، الذين يهبطون خفافا هناك، ليقصدوا دورات المياه، ومن ثم ليذهبوا للصلاة، لم أر عصا سوداء، كالتي رأيتها في الرياض بالسعودية، وهي تهزم الناس

باتجاه المساجد، ولم أسمع نداءً صاخبا معنِّفا، كالذي أسمعه في أسواقنا ساعة حلول كل صلاة، كان الناس يذهبون بلا ضجة، وبدونها يعودون، حيث مقاعدهم، لم تكن الصورة مفردة بين مشاهداتي بل تكررت في مدن طهران وقم وبروجرد وآراك وغيرها من المدن، التي مررت بها، مشهد خالص للصلاة، صورة شخصية لمدينة مسلمة، لا يشكل الاسلام فيها عائقاً مدنيا، ولا حلقة مفقودة في سلم التحضر، إنما هو ممارسة اجتماعية، محض سلوك مجتمعي، غاية في التهذيب، حتى أن المسافر بالكاد يسمعُ أذان الفجر في مدينة كبيرة كطهران، لعِلم الجميع بأن نداء الصلاة نداءٌ يأتي من فجٍّ عميق في النفس، لا من منارة، تطعن سماء المدينة برمح من حجر.

عبر طريق هي الأجمل هناك، وبين أناس هم غير الذين تركتهم في مدينتك، تخرج من طهران المزدحمة، وتتجه شمالاً، حيث تبرعمت تواً غصون التوت في الشوارع، براعم لم تكد تتفلتُ من لحاء أشجارها لتصل إلى (دربند) حيث يلوح الثلج أبيض في الأعلى، ولأن الطريق ضيقة هناك، فقد توقف السائق. سرنا راجلين، وسط منعرج جميل، ساحر وبهي، بين المحال والمطاعم والكازينوهات، صوت الماء وهو ينزل أبدياً من الشلال، الذي لا يُرى، يضفي على الخارج والداخل هيبة المكان، لكن مرأى الحلويات والمربيات بخاصة(الأحمر والوردي والرمّاني) المعمولة من التوت والأجاص والمشمش وكل ما تمسكه يدُ الطبيعة فينبت فاكهة، يجعل منازل الضوء براقة عليه، هم يجعلون الضوء خالصاً على أواني الفضة والنحاس، هكذا لتبدو في غير أعصرها، مع انها بالمتناول، رخيصة، مبذولة لمن يشتري ويبيع. يقول لي صاحب إيراني، اسمه مسعود، كان عمِل في اليابان ست سنوات، اتخذته من هناك ترجماناً، ليفهمني بقليل من لغة الانجليز ما يحدث لي: إن الحلوايات هذه غرام النساء، يصنعونها من أجلهن، وعليك أن تعلم أن نسبتهن في البلاد تفوق نسبة الرجال، وبهذه يكون مسعود قد قال لي: الحضارة أنثى، فتعال.

على واجهة المطعم، حيث جلست أتناول وجبة المساء، كانت هناك يافطة صغيرة كتبت بالفارسية، لكنها تتدلى من مكان مهمل في الريح، تقول ما معناه «إن الحجاب واجب على المرأة المسلمة»، لكن، وقبالة الطاولة، حيث جلست مأخوذاً بسحر المكان، كانت هناك امرأة جميلة بعمر النوروز، الذي ابتدأ فارعاً مع حبيب لها يدخن الاركيلة، كان طوى ذراعه على خصرها، فهما في حديث طويل، لم أكُ فظّاً، غليظ القلب، لأرى كل ما فعل العاشقان، اللذان لم يعيرانني انتباها، لكني لم أك غافلاً أيضا عمّا صنعا، فقد كان صوت القبلة، قبلتهما، يصلني مع بحّة الماء المنهمر من الأعلى، مع الأغنية التي تنبعث من مذياع المطعم،

مع هبوط قرص الشمس والمطر الناعم، الذي ظل يطرق سقف العريشة، حيث أجلس ويجلس الآخرون. ظلت اليافطة يتيمة المعنى، فقد غاب الفقيه، غاب المشرّع، واختفت نداءات المُحرّم والمرجس، لقد أسقط العاشقان الشيطانَ في بئر هيامهما، ومن قبلهما أسقطت السلطات الكبرى سلسلة الرجال، الذين قالوا لا للعشق لا للحياة، لا للقبل.

المشهد المدني، المجتمع بكل تشكلاته الدينية-السياسية- في طهران مختلف عنه في اي مدينة عراقية، شيعية أخرى، هناك رقيٌّ في كل المفاصل، وهناك شعب محب للحياة، مقدِّس لها، تحكمه مؤسسة دينية، فقهية، تتعاطى الرأي وتعرف لعبة السياسة، تدرك عن وعي مقولة ماذا وكيف وإلى وأين تدار عجلة السياسة في البلاد؟، ومؤسسة سياسية أخرى تحسن فنَّ إدارة الدين في المجتمع، وبمعنى آخر، هناك مؤسستان قويتان(دينية وسياسية)استطاعتا الحفاظ على الحد الأدنى للتدين، مع الاحتفاظ بهيبة الدولة المدينة، والتحرك بانتظام وتحضر مع العالم، يحرك ذلك كله شعور وطني، قومي، قائل بعظمة بلاد اسمها بلاد فارس، حيث التاريخ المدني المدوي، حيث الشعور بالفخر والاعتزاز بان الأرض الواسعة تلك، كانت تشكّل شرق الكون كله، وأنَّ الشمس إنما تشرق عليها قبل أن تشرق في أي مكان آخر في الكون.

هل تكتبُ الصبيَّةُ أوتارها في البيت؟ لا، يقول بائع أقلام الكحل، هنَّ يتبادلنها خلف أسيجة الجلنار مع (البوظة) والسجائر. في الثالثة والنصف ودقائق خمس يصل القطار محطة أراك، أنا تركته هناك ونمت، فكانت طهران فجراً يسيل ومركبات. خيابونه إنقلاب – نيره سيده – بيوله جوبي- خيابونه فروغي- كوجه بنفشه- بلاك جهار، هذا هو عنوان المنزل الذي أمّنته لنا السيدة الفاضلة «صديقة علوي» هي التي تسكن ميدان هفته تير بطهران الكبيرة. سألتُ صديقي المترجم محمد حزبائي، الذي يسكن الاهواز، عن معنى فُروغِي فقال: تعني: انبثاق النور!! ياه، قلت: وماذا عن «بنفشه» فقال: هو البنفسج. حملني ذلك الى ديوان الشاعرة الفارسية فروغ فرخزاد، الذي قرأت ترجمته عن الشاعرة مريم العطار، قلت إذن الشاعرة انبثاق النور، والزقاق البنفسج. أي طراوة في اللفظ، أي رقي في تبادل الكلام. في الفارسية حيث كتب سعدي وحافظ والخيام والفردوسي يكثرون من مفردات مثل باغ، عشق، بستان، بقجه، هزار، جلنار... لست شعوبيا والله. لكن النبيذ الذي شربته أعالي الجبل بطهران كان رائعاً.

تستأذنني السيدة «علوي» (65 سنة) بألقاء حجابها امام زوجتي، وهي تدلنا على مفاصل

الشقة، تقول إنه يضايقها، وهي لا تحسن ارتداءه، وتقول بأنها استأجرت الشقة لخالتها، حيث كانت تسكنها وحيدة، ولما توفاها الله آثرت أن تجعلها في مساعدة طالبات الجامعة، اللواتي يقدمن من مدن بعيدة للدراسة في طهران وتردف: للثواب.

غالبا ما يهتدي السائقون الى مقاصدهم في المدن الكبيرة عبر الـ جي بي أس، فالمدينة باتساع دائم، وطرقها مزدحمة أكثر مما يجب، فيما تغيّر البلدية تسمية الشوارع والساحات بين آونة وأخرى. المدينة، التي نقصدها كبيرة جدا، يقطنها اكثر من عشرين مليون انسان، يقول صديقي: إن مدناً وضواحي عديدة صارت تبنى وتتمدد على اطراف المدينة، الأم، ثم سرعان ما تلتئم لتصبح جسدا مضافا. ولأنها كذلك فقد ضلَّ السائقُ طريق عودتنا، دخل زقاقاً لا يفضي، وتوقف يسأل عابرين، سألته ما إذا كان يمتلك خريطةً قال:لا، أنا اجهل الكثير من الشوارع والضواحي الجديدة، هي تجهلني أيضا. كنت أقمتُ بألمانيا طويلاً. أنا في المدينة الغريبة كائن غريب آخر، الآن، لكنْ، لا عليك، سأبلغك مقصدك، فلا تخف.

تجمع السيدة «علوي» بقايا الطعام في كيس من البلاستيك المقوّى، تحرص على جعله نظيفا، منظماً، تقول: لا ترمه في حاوية النفايات، علّقه بعروتها، أو اتركه على جانب، قرب الحائط، هناك من يأتي ليأخذه، انسان مسكين او حيوان هجره صاحبه. الطعام حق للجميع، وهو للذين لا يملكون النقود أيضاً. هي تنشغل بمكنسة من عشب، تمررها على السجادة الثمينة، تلتقط ما تناثر من أتربة، تقول: الطالبات، من خارج العاصمة أقمن بها شهوراً، هنَّ لا يحسنَّ تنظيف المنازل، ما زلنَّ طالبات، يدرسن، من أين لهن الوقت للكنس والمسح. المراة تجد لهنَّ العذر، هي في الستين من عمرها، لكنها انيقة، تضع بعض المساحيق البسيطة على وجنتيها، وتمرر قلم الكحل على جفنين كليلين، وتضع قليلاً من احمر شفاه، لا أكاد اعلمه، بدت أقلَّ سناً. أنا أصغي لأصابعها ترتطم بباب الخزانة تارة أو تغلق شباكاً، أتابع خطواتها الباردة، الوئيدة في المساحة الضيقة بين المطبخ وصالة الجلوس، حيث المنضدة بكراسيها الثلاثة. أحكمت الباب بعد خروجها، قالت: في السماء غيم ومن الجبل تهبُّ رياح، وفي الشجرة أكثر من طائر خائف.

الشقة باردة، وسكان الضاحية غير معنيين بي، سمعت صريراً في قفل الشباك، لكنَّ طرْقاً خفيفاً على الباب أعلمني بوصول من كنتُ بانتظارها، أزيحُ عن الظلفة ستارة فأتيقن منها، هي إذن. ولأنني لا أحسن تشغيل مدفأة الكاز، فقد اكلتُ بطيخة وشربت شاياً، لم أصبر على بقائه في النار طويلاً، وذهبت، أشاهد التلفزيون. قلت لها:

القرميد أعلى الشرفة أحمر. فقالت: ليس بما يكفي لإشعال النار في المدفأة!!
وقلت: إن الوقت ثقيلٌ فقالت ليس بما يكسر الطاولة ويهشم الزجاج!!
ياه، أتكتبين الشعر؟ وأرسم الهلال على صفحة الماء اللينة،
وكنت تأخرتُ لأنني انشغلتُ، أضع الستارة على شرفة الحلم..
فأنا، غالبا ما أترك باب الأمل موارَبا كيما يخرج منه طائر اليأس..
واو. وتسمعني: لا تستوحش المكان، سيأتي، من أقصى الغابة من يسمي لكَ السناجب...
كنت اجلس في الحديقة. قالت: أتدوّن خطى العابرين الى الليل؟
يا الله، ما أجملك، ما أدلك على كثبان الفرح في قلبي؟
تقول: أتقتسم معي فوضى الماء في الساقية؟ ليس في جمة الشجر ما يكفي لانقضاء النهار!!
يا إلاهي، هذه المرأة تسبقني الى القصيدة،
فأبصرُ، أبعد من فضة أصابعها يتناثر ثلج كثير،
على دربزين المرقاة، اكوّرهُ وأقذف به بعيداً..
تقول أنت لا تحسن ترميم ما يتصدع في صوت القبلة!!
القبلة التي تبدد الصمت تحت عمود النور.
كنت أردد في سري قائلا: أغنية واحدة لفيروز لا تكفي لتذكر حبيبة غائبة،
زجاجة نبيذ واحدة لا تكفي لتدوين فكرة عن الالم.
وكنت كمن يجمع السنوات في حصالة الفقد ثم أنني قلت لها:
وردٌ كثير يخذلني، ساعة أحمل الى الخزانة قميصها الليلي،
قالت: ألا تجد في صمت حقيبتها فرصة لمحاورة الضجر؟
لا، والله. قلت: في أكرة الباب ما لا أتذكره من أصابعها،
كل الاماني مستقطعات على السرير، حيث كانت تتخلى عن قفطانها،
تتركه على الطاولة، الملعقة مهملة،
وحمالة صدرها على الكرسي الهزاز،
كانت ترسم هلالا تحت حاجبها فاتوهم الشرق مائلاً أو نازلا في هدوء الافق.
ومن فتحة في قميصها، كنت أبصر البحر يتوسط الهضبة والهضبتين.. فتقول:
أما أنزلتها منزلة مائك،
آطلعتها على كركرة العشب ونحيب الزهرة في الاصيص؟
فقلت: لا، والله. أنّى لي ذلك، وأنا مفارقها منذ حولين كاملين.

**الايامُ بسعة الماء والزهر**

تعال، أدلّك على الخمرة باذخةً، بنتَ عشرٍ، أتلفها الارمنيُّ بدارٍ ظُلمةٍ. تعال الى طهران، حيث الصبايا شاهنشاهيات، فارعات يخرجن كما كانت تخرج من قصرها فرح بهلوي. من قال لك إن إيران شيعية؟ انت لم تدخل المدينة بعدُ، طهران طيعة لكل ذي سفر مثلي، مبتلىً بالسماء تصبح زرقاء في الجبل البعيد، وتمسي سكرانة في الازقة، آنَ النساءُ يتخطفنك عند المقدّس من الابواب، وتحت خوخات المراقد النائية، فدع ظلمة قلبك في الدنِّ، تخرج سكراء(سكرانة)من غير خمر. أنت في البلد الذي منه قرة العين وكسرى وحافظ.

أمس، في المتنزة(باغ إيران) كان الشجر الحور أعلى من برج ميلاد، حيث يطل الناس على طهران اكملها، رأيت الندى عالقاً في العيون التي تختفي والسواقي، رأيت العشاق الذين اكتفوا بالظل مثوى وبالعشب فرشا ووسائد، رأيت المصابيح تجري الى منبت لها، ورأيت الشجر، كل شجرة زيتونة: يقول صديقي المترجم إن البنت التي اشركها جلستنا تدعى «زيتون» مات والدها في الحرب، على جبل في الحدود، المهندس، والدها لم يشأ الذهاب الى هناك، لكنهم أخذوه، وحين مات كانت لما تزل زيتون في بطن والدتها بعد. قال سمّوا ابنتي زيتون، أنا السلام علي. كان يكره الحرب، لكنه مات بها، يحب الموسيقى، لكنه مات بين صخب البنادق والدبابات. تجلس زيتون قبالتي، شعرها ينسرحُ اشقرَ، أقول لعينيها السلام، فقد كانتا بسعة الماء والزهر الذي بيننا في الحديقة.

على عمود النور، في (باغ إيران) في الظلمة التي يختل خلفها العشاق والشعراء المتوهَمون، أقرأ «حجاب أترَ خُوشْ أفاف» يقول صديقي المترجم إنها تعني( الحجابُ عطرُ العفاف) فاستحسن الترجمة. هي يافطة من ورق مقوّى، يعلقها حراس الحديقة ويهملها المتجولون، فلا أحد يعيد الضوء لمصباح تقادم النور في زجاجته، البلدية توسع من دائرة العتمة، فيطول عناق وتشتبك أصابع، ولا أحد يصلح إيشارب امراة سقط، لا أحد يفزع لصوت قبلة تحت إفريز المكتبة، هكذا، كان كتف المرأة، تقترح شكل الجدار الذي سترتمي عليه، محمولة على ذراعين من غلمة وشوق. هكذا، كان الشعر المنسرح، ينهمر خارج حدود التشريع، من يجرؤ يحشره في خرقة؟

لا أعرف من أين يأتي الماء كله، لم اتبع ساقية حتى نهايتها، أنَّى لي ذلك، كل ساقية في «باغ ايران» مترعة، والماء يصعد او يهبط هامساً، لا يشرك نفسه في قبلة ولا ينقطع في عناق، والحديقة إيوان يُمتدح تحت افاريزه الشعر والعطر والجلنار، شقٌّ من الآس والزهر اخرجنا

الى الشارع، كانت الاعمدة بطهران تضاء فتتكشَّفُ لنا عن باب لمطعم، أخذنا البوّاب منه. تقول يافطة عند المدخل إنه «مطعم الملا صدرا». يقول سرمد الطائي: إن رواية لا يشكُّ بصحتها، أنبأته، بانه مات على طريق الحج بين اصفهان والبصرة، بعد مغادرته لمسجده الذي نفي اليه بـقرية (كهك) وهو مدفون بالزبير عند الحسن البصري ورابعة العدوية، هذا الذي جمع الفلسفة بالعرفان، يلتقي بالذي جمع السنة بالزهد. هذا متهم بالتجسيم وذاك متهم بالتدليس. كان الملا صدرا شيخَ المتألهين، يقول بوحدة الوجود، كفّره العلماء ولم يسخط عليهم. وهو الذي أكثر من النقل عن ابن عربي ولم يذكره إلا بالتقديس والتعظيم، في مطعم الملا صدرا سمعنا الموسيقى وصوتاً لعله «كَروه ماه بانو»*.

في الضاحية الاجمل، وسط المدينة، حيث لا تبعد محطة المترو عن منزله سوى متجرين وشجرة عالية، يسكن السيد عباس، كان قدِمها من «يزد» قبل ثلاثين عاماً، واتخذ من طهران العاصمة مقاما. استقبلنا عند الباب، ثم وبصمت ناسك يعرف ما تخلفه ابتسامة صادقة، بخطىً كريمة وئيدة، استوى الى معصرة الرمان يسألها عصيرا لنا، كم أحبُّ الرّمان هذا، قلت: كنت أسقيته نبيذاً، عتّق في دنان باكو بآذربايجان. قال: ويستخلصون منه الدبس، يضعونه على طعومهم. الأذريون جبليون وطهاة. ومن طاولته الكبيرة الى طاولتنا الصغيرة حمل سلة الفاكهة، تفاح ويوسف أفندي وبرتقال. لم أسأله، لكنه قال: هي من بستان جدّي، بيزد، ظلَّ هناك وحيداً، متعلقاً بما حوله من النخل واشجار الفاكهة، ولأنني أجهل الخريطة، فقد جاءني بها من الحاسوب، واشار الى رقعة صفراء وسط الامبراطورية الواسعة، كانت الطريق الى خراسان أقرب منها الى طهران وهمدان، هي في البيد البعيدة واحة، يعبرها العائدون من شيراز.

رأيته يغمس قصبته في دواة أمامه، يحبّر أبياتا من شعر حافظ، ويخط أسماء المدن الايرانية، كانت القصبات والاقلام مقطوطات وبلا عدد في الارفف، أعلى المكتبة، وبين الكتب، وكان (الفارسيُّ النسخ) سيداً في اوراقه، سألته ما إذا أكرمني بخط اسمي، في قرطاسٍ احمله، ففعل. ياه، كم أحبُّ الباء طويلة: قلتُ، كم كان الزخرف باذخاً..

يتلقى تلاميذ الابتدائية بإيران دروساً في الخط، وحين تصفحت كراسة ابنه لم أر الكوفيَّ، أبداً. لم أشأ أسأله، وحتى ساعة مغادرتنا منزل السيد عباس، كانت زوجته ممسكة «درفشها» تحوك في كنزة من الصوف، الاحمر فيها بلون النبيذ الفاتح، لما تبلغها بعد، تقول أحبُّ الشتاء، أحبُّ وشائع الصوف الملونة مركونة في الخزانة، سأكون سعيدة إذا اكملت الكنزة، انا

أستعيد معها ما قراتُ في الليالي الباردة من قصص وحكايات، كان عباس يصلح ما انعقد وتشابك من الخيوط، صارت الارض ملونة، لكنه، ساعة يجد الوقت مناسبا وقد أنحلت عقد ورخصت خيوط، يلتقط تمرةً يقول إنَّ جدّهُ بعثَ بها من هناك.

في الليل، تركتُ مقعدي في الحديقة وخرجت أبحث عن إحداهن، قالت إن اسمها أفسانة، ياه، كم جميل الاسم!! تأبطتني. وكانت أعمدة النور تركض خلفنا.

# الى بيروت.. ملاذنا قبل الأخير

## معرض للكتاب... غابة من النساء والارز

في بيروت، التي لا تؤتى من البحر دائماً، نساءٌ وسهرٌ ونبيذ. ومن الليل القصير فيها يراح الى جبيل ومتحف الشمع وغابة الباروك وصيدا وبيبلوس وملهى الاوتار ومغارة جعيته وبعلبك. تحملنا السموات لها فنذهب، ويفتح مطارها أذرعه لنا فنهبط، تقترب الفنادق منا، فنختار الشرفات التي على البحر وتصيح الاسرة بنا، فننام.. أهنَّ النساء؟ أهي الكؤوس؟ من يغرينا بمن؟ تقول نادلة المقهى: السفر محاولة في النسيان، تغيير في مزولة الماضي. فأقول: ليس في حقائبنا إلا ما ألفناه من أرق وحمى، إلا ما كان زوادة من ياس، وها نحن رضينا من الطائرة بوجه المضيفة، ومن البحر بإيابه ومن الجبل بثلوجه وسناجبه، نحن، لا نريد أكثر من أن نغمر أجسادنا بالنساء، ونطيل ساعاتنا بالليل ونعاقب بلاهتنا بالسهر.

في الليل، حين كنتُ أتحرّق لرؤيتك، قلتِ لي: حدّثني عن رحلتك الى بيروت، وما انا بمحدث احداً عنها من قبل، لكنك رحت تلحفين بالسؤال، كلما رأيت صورة لي فيها، لا، لن أحدثك عن ليل بيروت الطويل، وساترك بحرها بموجه وأصدافه وحشد الصيادين الواقفين مع حبيباتهم على ساحله، لن اهبط سلالم غبطتي، أنا المتعجل، المحمول على قدميَّ الى معرض الكتاب في (البيال) فهذا مما لا تصديقنه، انت القابعة في زاويتك في الجنوب الرطب، بين المآتم واليافطات السود، سأكتفي بالحديث عن الكتاب الذي نكأت أرففُه وأكشاكُه جرحا قديماً، غائراً في الروح، حيث انسحبت الى المفاضلة والمقاربة بين ما تعيشه في بيروت، المدينة البحرية الجميلة، وبين ما تعانين منه في بغداد والبصرة.

هل أتيتُ حانةً على البحر فأقول: نعم، وهل لمثلي ان يظل حبيس غرفته بالفندق، نعم، وأتيتُ اكثرَ من حانة ومرقص ليلي، ورأيتُ بأم عيني، كيف يسقط الضوء على شعور واكتاف النساء الجميلات، وكيف يحمل النادل قفطان هذه وحقيبة تلك، الى حيث المشجب عند الباب، رأيته وهو يأخذ مظلاتهن وقبعاتهن الى ركن في المرقص، قرب المدفأة، حيث انهمر المطر غزيرا ذات ليلة، رأيتهن وهنَّ يحيينه بابتساماتهنَّ العريضات، شاكرات صنيعه، ورأيت المرأة، سيدة المنزل، الزوجة والحبيبة والخليلة وهي تطوي ذراعها تحت إبط زوجها، حبيبها، خليلها، رأيتهم وهم يعبرون الناس والمقاعد الى الطاولة التي تم حجزها لهم. رأيت النادل

وهو ينحني رقة وأدباً، ليسكب في كؤوسهم ما شاؤوا من النبيذ والجعة وعصير البرتقال. ورأيت الليل وهو يستعجلهم الى الفجر غناءً وسُكراً ومباهج.، وفي مطعم الأوتار، تراجعتُ خجلاً وهلعاً، ووجدتني في موضع العاجز الضعيف، ساعة تركت الراقصة عصاها في يدي، كانت تريدني راقصاً معها، ففعلت.

**

تعمل المؤسسة الثقافية في لبنان على جعل الأيام الأخيرة، من معرض بيروت الدولي للكتاب بداية للاحتفال بأعياد الميلاد، حتى لتبدو الأيامُ هذه امتداداً للكرنفال، الذي تعيشه المدينة سنوياً، وبين مكان المعرض في «البيال» وشارع الحمرا والضواحي اللبنانية الأخرى، القريبة والبعيدة منها، ستتاح لزائرها فرص التمتع، بما تبذله المدينة من جمال وألق.

ولأن ساعات المعرض الحقيقية تبدأ بعد منتصف النهار، لتمتد حتى الليل تقريبا، فقد يمضي الزائرون ليلهم الطويل على البحر، حيث يكون الدفء والليل واقع حال، مثلما سيكون البرد والثلج واقع حال آخر، في الجبال، لمن أراد ان يكون نهاره هناك، اما إذا شاء احدٌ ما الذهاب الى جبيل وبيبلوس، حيث القلعة الرومانية، وحيث تكون شجرة الميلاد قد علت وارتفعت بكرات الثلج والمصابيح والاجراس الملونة، وسط الضاحية الجميلة، فعليه أن يهبط البحر، ويأخذ مجلسه قبالته، قبل كل شيء، وليحرص أميناً، آمناً على أن يكون للشمس مغيبٌ هناك، فهذه لحيظات لن تتكرر أبداً، كذلك، عليه أن يحرص على أن تكون وجبة السمك مطوقة بالعرق البلدي وبكؤوس النبيذ الأبيض، فهذا مما لا ينساه المرءُ هنا، حيث يلامس البحر الأقدام.

لا يبعد البحر طويلاً عن الشجرة، وليست الشجرة مفردة في الساحة التي أضيئت من كل صوب، فالضاحية الصغيرة هذه(جبيل) غابة خضراء أيضاً، يزرع سكانها المسيحيون الأشجار في أي فسحة يجدونها شاغرة حوالي تمثال للسيدة العذراء، لن تفاجأ أبداً بعدد المريمات الحارسات هنا. الاشجار والشموع والأجراس وصورة السيدة التي تحمل طفلها او ترفع يديها بالدعاء، هذا، مما ستألفه بعد ساعة، من وجودك، أما إذا كنت من المستجيبين المتعجلين، التابعين لخطاك، فكن على يقين بانك هابط البحر لا محالة، لأن الطرقات كلها ستقودك الى هناك، الى شارع بيبي عبدو، القبطان، ومغامر البحر العتيد وزير النساء، مؤسس حلبة مصارعة الديكة، وصاحب اول مطعم على البحر في القلعة الرومانية، التي لم تكن قبل من شيء.

كنتُ أبحث في المعرض عن كتابين، وجدتني جادّاً في اقتنائهما، هما: «المنشق» لليوناني نيكوس كازنتزاكيس و«كتاب اللاطمأنينة» للبرتغالي «فرناندو بيسوا» حتى لكأنني اكتفيت منهما بكتب المعرض الأخرى، غير ان التَّجوال في المعرض يتيح للزائر امكانية رؤية أكشاك دور العرض، التي اشتركت وجاءت بالجديد والقديم من اصداراتها، وكذلك لحضور فعايات توقيع الكتب من قبل كتابها، كما أنه يتيح له اللقاء بمن يصادفهم من أصدقائه هناك، وعلى غير عادته، كان المعرض في السنة هذه حافلاً بعدد كبير من الكتاب والمثقفين والزائرين العراقيين، الذين قدموا من الداخل والخارج، فكانت أكشاك وأروقة وكافيتريا المعرض امكنة لتجمعهم، وبحديث متصل طويل، بدايته هنا، بين الكتب ونهاياته في مقاهي الحمرا وأمواج الروشة وحانات البحر وغرفات الفنادق، التي غالبا ما تنغلق على غير ذلك، سيكون الليل قد انقضى.

بين «المنشق» و«اللاطمأنينة» وجدتُ نفسي تتنفس ريح عشق الكتابة، يقول بيسوا: «من انفلات الغبشة انبعثت ملامح المدينة، فاذا بالنهار ينبلج مثل انفتاحة نافذة، كان ثمة تبدّل خفيف من ضجيج كل شيء. تلوين ازرق نفذ الى احجار الشوارع والروائح اللاشخصية للمارين. كانت الشمس دافئة، لكنها مع رطوبة متصلة، اما الضباب المتواري فقد كان يتقطر على نحو غير مرئي» هل كان بيسوا معنا، ليكتب عن بيروت؟ ربما. لكن بيروت هكذا، فقد تدفق المارّون بها، وانبعثت روائحهم اللاشخصية في شوارعها حال توقف المطر، ومن نافذة الفندق رحت أتقصى حدود الضباب الذي أعلن انسحابه عميقا، على سطح المتوسط، البحر الذي ما انفك أبيض، ازرق، ولا زورردياً، ما انفكت النساء يرحن ويغدون على أرصفته العريضة، ببنطلوناتهن الجينز وقفاطينهن السود، حيث لما تزل قبلات الليل بعد على غمازاتهن.

وفي «المنشق» يكتب كازنتزاكيس: «لينوتشكا الحبيبة، أشعر بفرحة غامرة عندما تصلني رسالة منك، فكم تدوم تلك الفرحة؟ سوف أبذل قصارى جهدي حتى تظل دائماً، أعرف حدود البشر، ومدى ضيقها، وأعرف قانون الزرع والإزهار والإثمار والتلف أيضاً، لكنني أعرف كذلك قوة الروح التي ليس لها سوى هدف واحد، هو الأسمى: ولا يتمثل في إكمال الطبيعة بل في «التغلب» عليها». مثلك، أنا يا نيكوس، أعرف قانون الزرع والإزهار والإثمار والتلف أيضاً، لذا وجدتني صامتاً، قليل الكؤوس في الحانات، مقيّدَ القدمين في صالات الرقص، احجب، وبالرؤى الساميات عن عيني ما تناثر من صور حولي، أمسكُ بناصية نزوعي كي لا تبدو حمقاء، بليدة، ألجم خيل رغبات الجسد، لئلا تسقط متهتكة، أروّضها، أجعلها

أكثر طمأنينة، مخافة أن تنشق وتذهب الى غير بغيتها، التي أردتها لها.

في بيروت، عليك أن تفصل بين جسدك ورأسك، أنت العارف بقانون الزرع والإزهار والإثمار والتلف ايضاً، نعم، ياكانتزاكيس، لم تأتني رسالة من حبيبة، ولست بمبال أبداً، فانا غابة زروعي وأزهاري وأثماري، لكنني لا أتلف ما تنبته روحي.

تركتُ المعرض بكتبه وبيروت بضواحيها ونسائها ورحت الى جبال الشوف، الى غابة الباروك، الغابة التي اقتحمها جدّنا الأول، جلجامش العظيم، حيث يشتجر الأرز عالياً، وحيث ظل الثلج يسقط هناك، غامراً الحجر والرمل والسناجب، وفي وحدانية الجسد مع الروح، في السكينة التي تمنحها الجذوع الصلدة هذه، بين ما ظل من الثلج عالقاً في الغصون، وما سقط وغطى الغضون الهامدة للأرض العتيقة، بعيداً عن صخب المارين هناك، على الشوارع والأرصفة وفي الأزقة، وما تحدثه أقدامهم في الاسفلت، رحت أصغي لوشوشة الريح، ألبّي النداء العظيم وأرحل مع الحكمة، التي كانت يوما أوروك، مع العظمة التي كانت شجرة أرز، اتوحّد مع روح العظيمَين كلكامش وأنكيدو وهما يصطرعان، أو وهما يتحديان خمبابا الوحش، ومثل ثمرة اكتملت دورتها سقطتْ وتدحرجتْ، رحت أقتفي خطاهما، وهما يبحثان في الغابة العظيمة عن عشبة الخلود. ساعة لا يكمن الخلود في عشبة، ولا تخلد الطمأنينة الى جسد.

# من الفاو الى البصرة فأربيل

## في مديح الماء والملح والشمس المحرقة

برٌّ طويل وسبخة رعناء تفصل بحر الفاو عن البصرة، وبمثل الجغرافيا هذه يبعد بحر أم قصر وخور الزبير عنها، لكن الرطوبة ورائحة ألواح السفن وزفرة السمك وصيحات البحارة هناك، تدخل بيوت المدينة كلها، كلما هبّت الريح شرقية من جهة الخليج، وما يتضايق الناس منه من رطوبة وملوحة تخففه وفرة السمك ورخص اللذيذ من انواعه، التي تبلغ ذروتها في الأيام الأخيرة من شهر آب، حيث يصعب خزنه لفترات طويلة داخل سفن الصيادين، وما يعاني منه سكان المدينة من حر ورطوبة وملوحة أيضا يفرحُ به أهل ابي الخصيب، الذين لا ينضج تمرهم البرحي إلا في الأيام الحارة الرطبة القائظة، ولا ترتفع أسعاره إلا والدنيا شمس متعامدة على الرؤوس.

لا تشبه البصرة مدينة عراقية أخرى، ولا يمكن مقارنتها بأي مدينة على الخليج، فلا بحر لأحد من العراقيين سوى الذي في البصرة، ولا مد ولا جزر إلا في انهارها الألف، ولن يكون البرحيُّ المقلوع من بساتينهم، المغروس في غيرها رُطبا، تمرا، هناك مهما بالغ زارعوه في غير أرضهم بوصف حلاوته، لن يبلغوا نصف حلاوته التي هنا، مهما عَذُبَ الماءُ وطابت الريح وتفنن غارسوه في ريّه ورعايته والعناية به، فالماء المالح والرطوبة والحرُّ والشمس المتعامدة سرٌّ من أسرار نُضجه وطيب طعمه، واكتمالُ أفلاكه التي جلبت لأهله حلاوة اللسان وطيب النَّفّس وسماحة الروح وزينة الأهاب.

ذات يوم، كنت في «الجنادرية» بالمملكة العربية السعودية، فكان، من اشتراطات ضيافتهم هناك، تقديم نوع من التمر بعد القهوة، تمرٌ اسمه (اخلاص) نوعٌ يشفُّ مثلما البلور، يُشبه في شكله البرحي البصري، طيّبٌ ومذاقه حلوٌ لكنهم –الأصدقاء– في السعودية يعترفون بأنه لا يبلغ نصف طعم البرحي، الذي لدينا في البصرة، يقولون بان ماء شط العرب واحد من أسراره، والبصريون يشترون السمك المستورد من إيران ودول الخليج وغيرها، حين يشح السمك في بحرهم الضيق البعيد، ويشترون الطماطم والخيار والخضار مما تنتجه بساتين أهلينا في الحلة وكربلاء وسامراء، لأنها تشح في بعض مواسمهم هنا، لكنهم يُجمعون على أن الذي يغرس ويزرع في أرضهم ويسقى من مائهم وتحرقه شمسهم لا يمكن مقارنته بأي مما يزرع بأرضين

الناس، كل الناس، هناك عشق لكل ما هو بصريّ، حتى الرطوبة وملوحة الماء والشمس المحرقة لها طعم أخروي، فردوسيٌّ لديهم، هناك عشق للإذلال الذي لا تفتأ الطبيعة (تجود) به.

روائح كثيرة لا يستطيبها أحدٌ من غير البصريين، كرائحة التمر الرطب في عنبار المكابس ودهان السفن والمهيلات الخشب، سفن صيد الأسماك ومهيلات نقل التمر والفاكهة والخضار ولمن مرَّ سائحاً على كورنيش شط العرب، عند نقطة التقاء نهر العشار بالشط، قرب سوق الجملة (العِشْر) المقابل لمبنى شركة التمور العراقية-هي أثر بعد عين الآن- في مثل الأيام هذه، قبل نحو من أربعين سنة، سيتذكر الرائحة تلك، رائحة الخشب المطلي بزيت كبد (الكوسج) كان أبي يسمّيه بـ(السَّيرج) لعله لا يتذكر معنى عربيا له، هناك سحر كامن في الرائحة تلك، هي مزيج من رائحة عفن خشب نديان، رطْب، قلبته طويلاً أكفُّ الأمواج، وهي بعض من رائحة عجين فطير لما ينضج بعد، أصدافٌ وقواقعُ علقت بالبدن المغزلي الطافح، علقت به عبر ترددها في الأزمنة، عبر تحولها في المد والجزر، أشنات شواطئ فسيحة امتدت من رأس البيشة في (محنتيني) حتى جسر الخندق ونهران عمر، صعوداً إلى حيث يلتقي الدجلتان، رائحة زمن عبقري مضى، رائحة أجساد ملاحين مهرة، جابوا البحار والأنهار، وتطلعوا عميقاً في الظلال.

## سيرل بورتر في الفاو

الى أخته دورا، يكتب سيرل بورتر، الضابط في جيش بريطانيا العظمى، التي احتلت قواتها البصرة سنة 1916 من على متن سفينته القادمة من بنكلور الى الفاو يقول: «عزيزتي دورا: بعد أن رست بنا الباخرة قرب الشواطئ الرملية، حاولت أن أمدَّ بصري ثانية، عبر البر الى الامواج، فلم استطع لشدة الشمس، فهنا تختلف عنها في بنكلور، هي لا تسبب صداعا حسب، بل تعمي البصر والبصيرة، وتمنعك من النظر لساعات طوال، ربما سأغمس نظارتي بالحبر الاسود.. أنا أمزح»

لكنني، وكلما ضاقت المدينة بي اخذت طريقي الى البحر، كلما وجدت المركبة سالكة بأحدهم، حملت أوصالي معه الى هناك، إلى حيث لا تتشابه السفن ولا تتمزق الاشرعة، عند مرسى سفن الصيد في الفاو، جنوبي البصرة، اجد ضالتي، وهي كفاف روحي: سماءً صافية وموجاً مالحاً وسمكاً مختلف الاشكال والطعوم.

ولأن الحرب لم تترك لهم نخلاً هناك، لم تترك عنبا او حناء، ولأن الماء المالح بلغ بأسياخه

بلعوم المدينة، فقد هجر السكان الزراعة، وتوجهوا نحو البحر، آخر بغية للعيش، دخلوه بسفن هي بقايا خردة الحرب، أشتغلها حدادون في القرية الصناعية بحمدان، فحمل الميكانيكيون لها محركات الدبابات المحترقة وسيروها على الموج الدافئ القريب، وهكذا صار بحكم اليقين، ان هؤلاء البحارة هم عماد سلة السمك في المدينة، بملايينها الذين قاربوا الثلاثة، ولولاهم لفتك فقر الدم الوراثي والبحري بأبنائها، لولا هؤلاء لما كنا عرفنا فضل اهل الماء على اهل اليابسة.

يقول صاحبي، الصياد الذي صحبني على ظهر مركبه الخشبي بان الفاو مدينة لا يعيش فيها العاطلون عن العمل، لأن البحر قادر على استيعاب الكثير من العمال، وحين خرجنا من الطريق الوعرة التي بنى المقاولون على أنهارها مجموعة من الجسور الحديدية، كنت ارى السباخ قد تمكنت من الارض، لذا فهي تمسك بقوة في شواطئ الأنهار، هذه المنطقة التي يستغرب زائرها من الإهمال فيها مع أنها كانت الأغنى في زراعة النخيل والحناء والورود. ولأن الأرض لم تعد كما كانت عليه قبل ثلاثين سنة، بعد أن فقدت الكثير من أسمائها، وما (حوز أبو عكاب وحوز النصَّار وحوز عبد العزيز وحوز الراشد وحوز الصافي وبيت مريعي وعبد علي المظفر ووو... ) إلا المساحات الزراعية التي كانت تحاصرها الانهار والنخيل وتتبطحها مياه المد مرتين في اليوم والليلة.

ثم أنه راح يعدد لي اماكن وبساتين وأشجاراً وأنهاراً لم تعد على الخريطة اليوم، أو تكاد تختفي وراء القصب والحلفاء والبردي في الشواطئ التي راحت تجف تباعا. لكن مشهد معمل الحبال استوقفني كثيرا، ترى من هذا المغامر الذي يبني مصنعا في الأرض الجرداء المالحة هذه، ولماذا الحبال؟ لكن، يحدث أنَّ رجلاً من أهل الطارمية ببغداد، جاء بمعمله الى هنا، بعد أحداث الطائفية هناك، أقامه على أرضها، فهو يؤمِّن حاجة أصحاب مراكب الصيد من الحبال.

قبل ربيع 2003 لم يكن للشيعة مسجد في الفاو، كان لأهل السنة فيها أربعة مساجد، وكتعبير عن التوادد والتحابب، تنازل أهل السنة عن مسجدين لأشقائهم الشيعة، في بادرة لم تسجل لأحد قبلهم. معلوم انَّ الفاو مدينة لم يحدث أن اخترقها إرهابي واحد، ولم تسجل في ضواحيها حادثة قتل طائفي واحدة، فقد ظل البحر ياخذهم للصيد معا، وليس بينهم من يُسأل عن دين ومذهب، ليس عند الصياد وقت لأسئلة مثل هذه.

في مرسى الصيادين بـ (النكعة) وقبل ان تشرق الشمس بساعات، من كل يوم، تعلن بورصة

البحر عن الموعد العلني لمزاد السمك، في مشهد لن يتكرر في اي مدينة أخرى، هناك صخب وجلبة على المرسى، صيادون ينقلون سلال السمك من عنابر السفن وحمالون يصيحون على بعضهم، ماء مالح يقطر من السلال والزفرة علامة دالة على المكان، هذا يأتي وذاك يروح، قناطر من خشب سميك يعبرها هؤلاء، داخلين وخارجين، ومع خيوط الفجر الأولى تكون السفن قد افرغت حمولتها، ومع اصطفاق الموج على الخشب الرخو ستكون المدينة قد بلغت صمتها، ها هي سفن الصيد تتهيأ لسفر جديد، ها قد ترادف المشترون من البصرة وبغداد ومدن الجنوب، وهاي هي المركبات قد عبّئت بأطنان من السمك البصري الطري، أخذت طريقها الى البصرة وبغداد والنجف. الناس هنا، فقراء منسيون، لكن، الذي يعرف مجاورة البحر لا مديح عنده الى اليابسة.

# البصرة، أبو الخصيب..
# حديقة الله التي كانت

في «دفتر أيامه» يقول يوسف الخال، الشاعر اللبناني بانه ظل حزينا حين قرأ في الصحف أن السلطة منعت سير عربات الخيل في صيدا، وكانت من قبل قد منعتها من السير في شوارع مدينة طرابلس. ومثل مفجوع راح يناجي وحشته تلك: «لماذا هذا التجني على بقية من مخلوقات الماضي الجميل؟ أضاق في عيون السلطة مشهد الخيول هذه؟ وهي تنطنط وتقرقع وتصهل، مزهوة بمن تجر، اكانوا زمرة من السكارى ام شلة من الاحباب او الاطفال أو الصبايا؟».

قد لا تشكل صورة جري الخيول عند يوسف الخال أبعد من مشهد شعري، وقد يكون ندبه هذا لأن حياته كانت قطعة تشكلت من مجموعة صور كثيرة بينها حركة الخيل وجريها رهقا، محمولة على الطرق الترابية، وهي تفادي الشجرة هذه وتشتبك مع تلك، أو وهي تنحدر اسفل الوادي ثم تصعد خاصرة الجبل مجبولة من خضرة وشموس وطقطقات. عوالم كهذه تتجاوز صورتها حدود ماكنة الزيت وكتلة الحديد والميكانيكا إلى ما هو عميق وأبدي في الروح، مع يقيننا بالحاجة لها، ومع إقرارنا التام بقدرتها على اقتحام حياتنا، وفي اي مكان نكون.

تسألني الكاتبة العراقية والمقيمة في الدنمرك، منذ ربع قرن دنى غالي، وهي تتذكر طفولتها، عن السلاحف والثعابين والضفادع والقنافذ والسناجب وبنات آوى، التي كانت تعبر الطريق فجر ومساء كل يوم، خارجة من الأنهار والجداول والبساتين هذه إلى تلك، على طول الطريق الطويلة، ذات الألف انحناءة وانحناءة، التي توصل البصرة القديمة بأبي الخصيب، في المشهد الذي كان معروفا لمستخدمي المسافة تلك؟ في الرحلة العجيبة التي ابتدأت منذ مئات السنين، حيث نجد الصعوبة بالغة اليوم في اقتفاء أثر الكائنات الوديعة هذه. لم أتمكن من إمساك لحظة الألم التي انتابتني ساعتها، ذلك لأن دنى لم تكُ لتشهد الصورة كاملة، فقد تركت الوطن الاخضر وهي غرٌّ صغيرة، ولم تشهد هروب الحيوانات الصغيرة تلك من انهارنا وقرانا وبساتيننا، بعد أن سحقت الجرّافات الارض بمن فيها، وبعد أن اختفت غابة النخل الكبيرة تلك.

ولأن المشاهد هذه جزء من ذاكرة المكان الممتد نخلاً وانهاراً وغبطةً عبر مئات السنين، من نهر الخورة وقرية البراضعية حتى آخر نقطة في رأس البيشة بالفاو. هذا الأرخبيل الرطب

المنسرح طينا واسماكا ونوارس وأشنات سيظل صورة ترتسم كبيرة على شاشة الامنيات، كلما انعطفت وجهة الحديث باتجاه الماضي. ولأن غابة النخل تلك كانت واحدة من جنان العراق والجنوب العربي، يوم كانت مستوطنة لمختلف الحيوانات البرية بما فيها الذئاب والخنازير الوحشية، فضلاً عن انواع كثيرة من الافاعي والثعابين والسلاحف والقنافذ وبنات آوى وسواها من اصناف الطيور والزواحف، ولوقوعها بين النهر (شط العرب) وصحراء الزبير، فقد ظلت مأوى ليلياً لكثير من وحوش البرية، التي ما فتئت تعبر الغابة سرّاً تحت جنح الليل، باحثة بين النخل وأشجار الفاكهة عن بغيتها.

حديقة الله الواسعة هذه، كانت غصونا اشتجرت كبيرة، لتحط عليها أنواع متعددة من الطيور. اما المشهد الذي ظل في ذاكرة الزائرين فهو الذي تستحضره دنى، وهي تتحدث عن السلاحف والأفاعي، التي غالبا ما كانت تموت مسحوقة تحت عجلات مركبات الخشب، وهي تقطع الطريق فجراً، محملة بسلال التمر والخضار والفاكهة، قاصدة سوق المدينة الكبير في البصرة القديمة.

يقول سائق المركبة الخشب-جارنا- الذي يتخذ من ركن منهدم قرب بيتهم مجلساً له اليوم، بعد ان اعياه الزمن تعباً ونحولاً، بأنه كان غالباً ما يتوقف ليقطف العنب والتفاح والرطب من البساتين وهو جالس في مقعده بالمركبة، ذلك لأن الطريق كانت ضيقة إلى الحد الذي تخشى على وجهك من لطم أغصان الخرنوب والتوت، التي تقتحم عليك الشبابيك، فقد كانت الأشجار تحفُّ المركبة في كثير من أماكن مرورها، وكنا إذا بلغنا قرية مهيجران فجراً، وقبل عبورنا جسرها الجميل، كنا نتوقف، ونفتح أبواب الصندل الخشبية لتمتلئ صدورُنا برائحة أزهار ملكة الليل وقداح المشمش والخوخ. وفي القرى التي تتباين تسمياتها، مثل كوت الفدّاغ واليهودي والسبيليات ودرب المِحَيرات ومحيلة الصكاروة وغيرها، هناك، سيصير بمقدورنا انتقاء النوع الذي نريده من الرطب والعنب، على طريق مرورنا، قاصدين العشار أو عائدين منه. أما مشهد الافاعي والسلاحف والقنافذ التي تدهسها المركبات فمشهدٌ يوميٌّ، حيث نكون غير قادرين على تفادي دهسها احيانا. في موسم الربيع بخاصة، حين يبلغ ماء المدّ أعلى مناسيبه في أيام السنة. آنذاك، تتحول القطعة السندسية تلك إلى واحدة من اجمل بقاع الكون، لأن رائحة قداح الطلع وزهور المشمش والخوخ والبمبر والفاكهة والخضار تجعل المكان فاغماً، يضوع بكل انواع العطور. عن أي ذكرى جميلة اتحدث؟

العزيزة دنى: الذي ظل مما كنت تشاهدينه، أو تسمعين به قليل جداً، متناثر هنا وهناك، بعد

أن فقدت الغابة مقدرتها على حماية مستوطنيها من السلاحف والأفاعي والقنافذ، مثلما عجزت عن احتضان مواطنيها المساكين بعد أن قطّعت الجرافات أوصال غابة النخل، بعد أن اقتلعت المسرّفات مساكن الطين والجذوع وجرفت النخل وأشجار الفاكهة، وبعد أن إمّحت الظلال تلك، هاجر الكثير من أصدقائنا (الوحوش) من سكان الطبيعة، الذين لم يكن لحياتنا معنى بدونهم.

اتحدثُ عن الضواري التي كنتُ اتفادى أسرابها ليلا، عن السلاحف والعرابيد والكواسج(اسماك القرش) وبنات آوى، أتحدث عن البلابل والعصافير الملوّنة، عن السناجب وبنات عرس التي كانت تملأ بطونها من دجاج غفلتنا، عن خنازير البرية التي كانت تعبث بحقول البرسيم،عن النجوم والأقمار التي كنا نجمعها من الجداول آنذاك، عن السكارى الذين وجدوا في الظلال الكثيفة مقيلهم وقد افرنقع طبل وماتت أغنية.

## مدرسة المحمودية... ألف بلبل وبلبل

كان الوجيه محمود باشا آل عبد الواحد، عضو مجلس الاعيان في حكومة العراق الاولى قد أطلق ألف بلبل وزاد واحداً ليصبح العدد الفا وواحدا، في حفل افتتاح «مدرسة المحمودية» التي اقتصها من أملاكه سنة 1921 في استحضار لليالي العربية، الألف ليلة وليلة، التي سحرت العامة والخاصة من الناس عبر الازمنة. قد يبدو الرقم مبالغا به اليوم، لأننا لا نجد في البلدة من البساتين والاشجار ما يكفي لإيواء العدد الكبير هذا من البلابل، لكنهم يُردفون قائلين بأن الباشا كان والياً على أملاك أم السلطان عبد الحميد في جنوب العراق، وهو –مير ميران– وكان شيخا محبّاً للعلم والثقافة، وأنه اشترك مع أحد باشوات البصرة في تأسيس مدرسة «تذكار الحرية» الابتدائية في المدينة، وهو أول من جلب مطبعة حديثة إلى المدينة. وهو الذي تداولت كتب التواريخ صوره ومآثره.

في لندن الباردة، التي زرتها ذات يوم، من العام 2005 سألني الشاعر الكبير سعدي يوسف، المولود في ابي الخصيب ايضاً، عن مدرسة المحمودية، التي درس فيها، فقلت له هُدِمت، همهم طويلاً آنئذٍ، ثم أنه وبعد أعوام أربعة، كتب قصيدة يقول فيها:

«سألتُ طالب عبد العزيز، الشاعر، مؤخراً،

عن مدرسة المحمودية بأبي الخصيب، حيث أتممتُ الابتدائية. قالَ:

هُدِمَتْ. إذاً، أين المكانُ؟ والآن؟

إنْ كانت أسبابُ الذكرى مُـنْـبَـتّـةً،

فعلى أيّ أرضٍ تتأسّسُ الذاكرةُ؟ العراقُ كان مُغَيَّباً عنّي.

وهو الآنَ مُمعنٌ في الغياب....»

ورحت أروي له كيف أنَّ املاك آل عبد الواحد بيعت من قبل ورثته، ولم تفلح مناشدات أهل المدينة بمن فيهم من المعلمين والدارسين في المدرسة الأثرية، بمنع الجرّافات التي التهمت الطابوق والخشب وأصوات الصبية، الطلاب الصغار، ما أن انقضى النهار من اليوم ذاك.

ما كنت لأتذكر المدرسةَ هذه لولا أني جفلت من صهيل حصان مخفر الشرطة الأشهب، الذي شدَّ إلى مربطه، لصق المدرسة تماما، حيث مررت ذات يوم، قرب الاسطبل العثماني، قبل نحو من خمسين سنة. كان المبنى شاهقاً، متطاولاً، مع شجرة السدر المزدحمة بالعصافير، وقد شدّني منظر الطابوق القديم، غير المكسو بالملاط. كانت اعمدة السقف الخشبية، المقدودة من الغابة تواً، بارزة امام المبنيَين. أما البستان الذي قبالة باب المدرسة فقد ظل مشتجراً نخلاً وفاكهة. وأصوات البلابل والعصافير كانت أدنى قليلا من جلبة الطلاب في المدرسة.

المعلمون انيقون بأربطة عنق فاخرة، ما كان العراق يستورد القماش إلا من لندن، والاحذية كانت فرنسية، يعرف الطلاب معلم الحصة القادمة من مشيته في الإيوان الطويل، من صوت حذائه، وهو يتصادى، مرنّما على الطابوق المربع، المفروش عاموديا وأفقياً.

كانت رائحة الورد الرازقي تدخل الصفوف من ثقوب المفاتيح والشبابيك المفتوحة على بستان الوجيه، آل عبد الواحد. هل كان معلم الرسم يرسم البلبل ملوناً، انا لا أتصوره كذلك. بدا لي أن الطبشورة كانت تنفتح على اللوح الاسود، فتميل ثم تنحني لتصنع بلبلاً. كان الله يرسم البلبل على الشجرة بالأسود والأبيض، وسوى من ريشات صفر صغيرة، تحت ذنبه القصير. لا يبدو البلبل أكثر من ذلك.

استوقفت الكثيرين مثلي فكرةُ إطلاق الألف بلبل وبلبل، من البلابل الخصيبية المعروفة بجمالها وأصواتها الشجية، في سماء المدرسة، وستظل تستوقف آخرين روائح ورود الرازقي من بستان الباشا، وسيتوقف غيرُنا عند الساعة الذهبية، التي كان يعلقها مير الميران، محمود باشا آل عبد الواحد في عروة سترته، وهو يطوف حول المدرسة متتبعاً خطى المعلمين في الممرات، المضاءة بالفوانيس، مصغيا لجلبة طلاب الصف الأول، وهم يرددون المقاطع

العصيّة لقصيدة الأصمعي الشهيرة: صوتُ صفيرِ البلبلِ.. هيّج قلبَ الثَّمل. وهم يتسلقون الاشجار التي قبالة باب المدرسة، ساعة نفورهم منها، جائعين وعُطاشى، قبيل صلاة المغرب بقليل. وقد أنهكهم توالي الدروس، أو اوجعت كلماتُ التأنيب أرواح الكبار منهم، ممن التحق بالمدرسة بعد ان أنْبَتَ وصَلْبَتْ اعاليهِ واسافلُه.

كانت المدرسة قد شكلت لحظة نشوب نيران المعرفة في قلوب أهل المدينة الفلاحية، اولئك الذين أرهقتهم طويلا زراعة فسائل النخيل وغرس أقلام العنب والتين وسقي الماشية وقطف الثمار وجمع الحطب أيام الشتاء، وقد أنذرت السماءُ أبناءها بماء هطل، مزن منسكب، غير منقطع. ها قد اصبحت البيوت أنأى بفعل ما علق بأحذيتهم من الطين والوحل وعيدان الحلفاء.

أراد بدر شاكر السياب، الشاعرُ ان يطلب من قائمقام المدينة، آنذاك، تسمية إحدى المدارس باسم «مدرسة نهر العذارى» السيّاب أيضاً جلس على مقاعد مدرسة المحمودية، لكنه مات قبل أن يُصغي أحدٌ من القائمّقاميين لطلبه، ولم تبن المدرسة. الناس في المدينة اليوم يقتفون الخطى الهزيلة التي كان بدر يخطوها، من قريته التي على نهر بويب حتى وصوله مدرسة المحمودية، وسط السوق الذي تناثر أبعد وأبعد، كان النهر يحفُّ المدرسة من خاصرتها، والماء الأول، الذي يأتي به الشط الكبير، عند الفجر غالبا ما يكون أعذب، أروى لهم، هو يتمدد مع السور، فيسمع الطلبة وشوشته وهو يصعّدها على اوراق التوت والموز الطويلة. كانت بلابل الفجر تنقر حبات التين باكراً، كذلك تفعل الفواخت مع ما ظل بين السعف من تمر السنة الماضية. هل نبني مدرسة يُنشد طلابها أغنية البلبل التي لم يتمكن من حفظها أحد من طلاب مدرسة المحمودية، آنذاك؟

أستعين بالصورة التي على نهر باب سليمان، قرب الجسر، حيث كان حامد الهارون يجلس على طاولته العامرة بالعرق الموصلي وبالسمك محفوفا بالورد وقناديل الجلنار لأقول مع غيري من الكاتبين الباحثين عن آجرّة واحدة، تركتها الجرافة من أطلال المدرسة، فيصيح بي المصور الشيخ، الذي ظل يمسك آلته، وهي تتأرجحُ على محملها الخشب، لا، هذه الشرفة الطويلة، ذات الشناشيل الهرمة، ما كانت يوما واجهة لمدرسة المحمودية. هي ما ظل من مبنى بيت الهارون، الذين رحلوا وتفرقوا في الثغور، تقطعت بهم أودية الغربة. الآن يسمع المارة أصوات البلابل في أقفاص بيوتهم الفارغة.

**على شط العرب في بيت خالد العمر**

لم تكن الشمس لتُتَفادى كثيراً في بيت رجل الأعمال، البصري، خالد العمر، على ضفة شط العرب، التي إلى الغرب، فقد هبط النخل البرحي دانياً بسعفاته الطوال ومنح المكان ما يكفي من الأفياء. نحن في الخمسة الأوائل من مايس من العام 2018، ورمضان يخطو خطواته الأخيرة، طارقا الابواب، كنا، لبينا دعوة مدير دائرة الوقف عبد الكريم الخزرجي، الذي أطلق سراحه قبل نحو من أسبوع. أخذه رجال مأمورون من مديرية الاستخبارات واحتجزوه بتهم لا معنى لها، هم أرادوه ممتنعاً بنفسه عن الترشيح لمجلس النواب، لكن الحجج تعطلت أمام القاضي، الذي أخلى سبيله. وها هو يدعونا الى وليمة جمع فيها أنصاره وأتباعه وأصدقاءه.

لم ألبِّ الدعوة موقناً بما في خُرج الانتخابات من أمنيات، أبداً، وليس الطعام ما جمعني به وبالمدعوين، الذين ملأوا المقاعد التي بلون العشب، بدشاديشهم البيض ويشامغهم الحمر، الذين قدموا من ثغور البصرة، في الزبير والبصرة القديمة وأبي الخصيب، أنا لبيت دعوة وجودي على شط العرب الخالد، في الموقع الذي يكاد يكون الاجمل عليه، هناك، أطلت وقوفي عند المسناة التي أحيطت بالمشبك الحديد، لتفادي وقوع الأطفال والسكارى فكان البنفسج، الورد دريئة عن كل شجن، متناً باذخاً لتأمل ما يمكن أن تكون عليه المدينة، إن أفلح رجالها في الوصول الى قبة البرلمان، واتخاذ ما يمكن اتخاذه، لصالح أهلها وقراها وضواحيها. سأبقى بحدود الحلم.

غادر خالد العمر البصرة في الفترة التي بين الأعوام 2005-2007 فاراً بجسده، ناجياً بما عنده من موت حاق به أكثر من مرة، بعد أن أختطف (مسلحون مجهولون) ـوما هم بمجهولينـ فريقاً من العاملين معه، في صناعة البيوت الجاهزة، كانت البصرة آنذاك مدينة لا يأمن إنسان فيها على حياته، مدينة متاحة حدَّ الموت للموت، صورة للفقد وعبور الحدود، غادرها وظل بستانه وبيته بمرافقه الفسيحة مكاناً بصرياً، خصيبياً، خالصاً للجمال والاناقة، يذكرنا ببيوت الطبقة الارستقراطية وبساتين الباشوات العثمانيين. اليوم يميل النخل البرحي على بعضه، يتداخل السعف بالسعف ويزيدهُ الماءُ المالح ضعفاً وهزالاً، لكنه يأبى إلا ان يكون برحياً، فقد اشتبكت العذوق وتضافرت مناجل وأحزمة ومحاريث على إبقائه علامة دالة على زمن يسعى الكثير من أهل البصرة الى استعادته.

ربما، تحدث غير واحد في الجلسة التي حضرها أعيان المدينة، وأثنوا على جهود الرجل، الخزرجي، وهو لعمري جدير بالثناء، فقد كان من الكياسة والحياء والاستقامة بمكانة لا ينازعه اليها أحد، مثلما كان متحدثاً بلسان رطبٍ بالشكر للجميع، وهذا ما هو له علينا في

الورقة هذه، لكنني سأتوقف عند لحظة حضور الشيخ مزاحم الكنعان التميمي، كبير القبيلة، الذي أفلحت مساعي مناوئيه في ابعاده عن الترشيح للبرلمان أيضاً، مثلما أفلحت جهودهم بأبعاد الخزرجي من قبل، هو بالذي عليه من المكنة والقدرة والاتباع، فقد كان لحضوره المؤازر والمناصر للخزرجي معنى من معاني الوفاء ومرتبة مضافة في المروءة. ولعلي لا أخطئ في قولي بأنَّ حضوره، وهو الزعيم الشيعي مجلس الشيخ الخزرجي، وهو السني، يعد سابقة في الود والولاء، مرتبة عليا في الانتماء لمدينة، كانت حاضرة التاريخ العربي والإنساني، فقد وقف يعلم الأجيال القادمة درساً في الوطنية وقبول الآخر المختلف. لقد طمر الرجلان حفرة عميقة للبغضاء والتباعد، ومزقا صحائفَ كانت كريهة في تاريخ المدينة.

تعال نرو المكان حكاية، فما في بحيرة السمك المهجورة أكثر مما في جوف الكتاب، ولن تمنحك مرقاة القلعة، التي تميل بفعل الهجر والدهر قليلاً أكثر مما تمنحك الممرات من خطى، تتحدث عن خطى الذاهبين، الذين ذهبوا الى هناك، ولقنهم النأي آية النسيان، كيما يظلوا الى الابد هناك، فما في الأفق سماء تصلح، وما على ضفة النهر من الانس بمجزٍ، هكذا، تبدد الغربة رملها، ويتفتت حصى اريد له أن يكون معنى، وما هو بكائن، انت تتجنب كاسك وأنا أسرجها بما بين يدي من النسيان. (محيلة الصكاروة، طريق سيد حامد، مشروع ماء المحيلة) سيد معمر، النهر الذي يسير الهوينا حتى يختلط ماؤه بالأسفلت الى السوق، حيث لا يتذكر باعة السمك أسماء السفن والنواخذة والصيادين، تعال، امنحك السماء في قطعة من الشذر، فأنا أفتقدك لا لأنني وحيد وبلا جادة للرجوع، فما كان حلما لم يعد، وسواء علي، أخذت بيدي الى النهر ذاك، أم أعدتها فارغة إلا من وجومك. في الليل، حيث يتسرب الظلام ويعلو السور، ستكون الدفلى أحطَّ من آجرهِ كله.

## الزبير... طريق الحرير المندثر

إذا كنت دخلت البصرة من بوابة البحر فسيكون لزاماً عليك مغادرتها عبر بوابة الرمل والغبار، لذا، قد يبدو الخيال قاصراً اليوم، عن تصور أبيات الشعر النبطي التي كان يطوح بها البدو، قاصدو البصرة، من بلدة الزبير، هؤلاء الذين سيتوجب عليهم ان يحملوا في خروج بعرانهم صرر ثيابهم ومتاع نهارهم وليلهم، فالجوع في البرية بين البلدتين قاتل، والماء شحيح أو منعدم، ولعل الخبز المعجون باللحم والبصل والثوم والخضار قمين بتكلفة ثمن الحياة هناك. في المبعدة تلك، حيث لا يبين من الزبير شيءٌ أبعد من منارة مسجدها الجامع، لنتذكر ان ابن بطوطة سنة 771 للهجرة، كان، ترك مركبه في نهر الأبلة ليصعد منه الى الزبير، التي لا يبصر عابر برِّيتها من جهة البصرة سوى خرائب السور، وبقايا باب قديم، سقط من مدونة الأزمنة،

يسميه البصريون جزافاً بـ «باب الزبير» والذي سيسمى فيما بعد بـ (ساحة فنجان، موقف البلشقات (عربات الربل بالخيل)الى مستشفى الجنرال مود، مستشفى البصرة العام) ولأن الطريق جدٌّ طويلة، فقد كان على مستعملها أن يحمل متاعه (خبزا وتمراً وقثاء، ربما)على برذونه الخفيف ويقصدها باكراً نهاية كل اسبوع!! في رحلة سأسميها بأسفارالميتين، فهم يبيعون التمر والفاكهة والخضار من البصرة، ويشترون البصل والثوم والبطيخ من الزبير، قافلين منها قبل كل مغيب للشمس.

إذا كانت البصرة، أسست سنة 14 للهجرة على اعتاب دخول جيش المسلمين العابر منها الى بلاد فارس، حيث كانت تسمّى باصورا وبسي راه وأرض الهند، فقد كانت الزبير غير معنية بالمعنى التام للاسماء تلك، ولولا هجرات النجديين التي بدأت في الربع الأخير من القرن العاشر الهجري، لما كانت ستوجد. حتى وإن سلمنا بحقيقة قيام السلطان سليمان القانوني بترميم ضريح الصحابي، الزبير بن العوام سنة 1571 ميلادية، الرجل الذي جعل التاريخ ذاك مفصلاً أساسياً في وجود المدينة. لكن، ستكون سنة 1003 للهجرة موعدا حقيقياً آخر لوجودها، إذْ بنى النجديون أول مسجد لهم(مسجد النجادة) الذي ما زال قائما حتى يومنا هذا، وبات العلامة الأكيدة على نشاة المدينة ووجودها كمركز تجاري، تعبره قوافل طريق الحرير الى بغداد والشام وتدخلها من جهة بحر خور عبد الله وخور الزبير سفن الهند، محملة بالخشب والبهارات والكحل وبذور الهيل والكتان والعطور.

ولاننا في فسحة المنى فلنتأمل البراحة، براحة الصلاة التي تقع قبالة المسجد الجامع، ولنقف طويلاً بباب الدروازة ونسأل احد الخارجين منها على دابته، قاصدا فسحة غيرها، في البعيد عن مشيخة الزهير وآل إبراهيم وثويني المنتفجي وعن بيت العون والمنديل... وماذا لو أطلعنا احدهم(لعله حفيدٌ لحفيد) تاجر من سكنة الزبير، على صورة جمل يبرك أمام بوابة دائرة الجمارك، بالعشار بانتظار حصوله على ترسيم بضاعته والاذن لها بالمرور عبر مخاضات الماء والرمل والحصى، قاطعا الطريق الموحشة تلك، الى نجد او طالعا بها تجاه الشام؟ وكيف ستبدو دهشتنا إذا أطلعنا على صورة الملك عبد العزيز آل سعود، أيام كان ولياً للعهد، وهو يزور بلدة الزبير ويلتقي الجالية التي قاربت الـ 250 الف نسمة، وفيهم من كبار التجار وأصحاب المال العظيم؟ ماذا لو وقفنا في منتصف الطريق، بين بغداد والشام لننظر مشدودين ومندهشين حيث يمر اسطول الجمال الطويل، القافلة من 5000 بعير، قادمة من الزبير، تحمل البريد المحلي أو محملة بالحرير والجلود والعطور وبحثنا في همايين أصحابها عن الليرة العثماينة الذهبية وريالات ماري تيريزا الفضية حيث يكون التعامل سهلا هناك؟

دعونا نترك هذه وتلك، ونسمع حكاية أمير شعراء النبط(محمد بن لعبون) (ت 1247هجرية) حين غضب عليه أمير الزبير، علي بن يوسف الزهير وأمره بمغادرة الزبير خلال ثلاثة ايام، بعد وشاية أحدهم بهجائه. فرد بن لعبون بأنه لن ينتظر، بل سيغادر الزبير حالاً. ولم يطلب منه أكثر من قربة ماء فارغة ومن حاله يتجه إلى آبار الدريهمية ليملأها، لكنه يتوقف ليسمع صوت طارٍ(دف) ليقف منشداً: ذا حسِ طارٍ او ضميرك خفوقه؟! يدق بهْ من نازحِ الفكر دقاق. الحيِ أهو حيّك وطيبه وفوقه ـــ والدار إهي دارك وهذيك الاسواق. يا قلبَ وان كانت علومك صدوقه -- بينك وبين الدار عهدٍ وميثاق.

ابن لعبون المولود في البحرين، هو الذي يقول «كلما دقيت في قاعٍ وتد— من رِداة الحظ تطلع لي حصاة» كان قد سكن الزبير سنوات وذاق من حلاوة العيش فيها ما لم يذقه أحد في نجد والبحرين، وانه قضى فيها من الليالي الجميلة ما قضى، فالزبير كانت حاضرة الأنس والخمرة والصحبة الطيبة وهو الذي يقول:

«ناسٍ سقوني بكاسْ بطُوُل* - خمْرِ المُواصِلْ غذوني بَهْ

واليوم راحوا، وأنا ما طول- ما راحوا إلا فؤادي بَهْ»

وله البيت الجميل هذا:

«هم بروني وأنا عودي رفيع-يا علي، مثل ما تبرى اليراع

طوّعوني وأنا ما كنت أطيع- واغلبوني وانا ظفرٍ شجاع»

وأيضاً:

«تلّيت ردنهْ وانتهضْ بالهُون - وله كَذلةٍ بالمسك راعيها

يا من يباصرني، أنا مفتون – روحي ترى فيها الذي فيها»

مثلما غادر محمد بن لعبون البصرة، قبل أكثر من مئة سنة، فكرت بمغادرتها، أنا، فالمدينة لم تعد تصلح للحياة، الحياة بمعانيها الأولى، أثمة حياة خارج حدود الطمأنينة والحب والمرأة وكأس الخمرة؟ منذ سنوات والبصرة تطرد اهلها، لذا، جمعت بعضي ذات يوم ووليت وجهي شطر أربيل، لكنني، وقبل أن ألتقيها في سيارة الأجرة (الأوباما)التي أقلتنا، نحن الثلاثة، إلى بغداد فأربيل، لم أكن لأصدق بوجود امراة عراقية يبكيها الحُّب حَّد انعقاد اللسان واحمرار العين وهطول الدمع.

كانت (توتة) هكذا كانت تسمي نفسها قد امتنعت عن الطعام والشراب على الطريق الدولي الطويل بين بغداد والبصرة( 500 ) كلم، بل أنها لم تغادر السيارة إلى دورة المياه حتى، وحين توقفنا في بادية السماوة، ظلت تبكي وتبكي، بما لا يمكن وصفه، لكنها، كلما بكت اكثر صارت أجمل، أجمل. امرأة في لكنتها شيء من كلام أهل الغربية، الذين أقاموا في سورية المحترقة ثم قدموا منها. دخلت توتة البصرة مستمتعة مع حبيبها بشقته في العشار، على ضفة شط العرب، متنعمة بالمكان المتغير، على الكورنيش، ربما، كانت تنشد زمنا حدثوها عنه. لكنني، ولكي أرفع عن كاهلها بعضا من جبل الحزن الذي تحمله، طلبتُ منها أن تقول شيئا عن سبب بكائها هذا، فقالت أنما أبكي الصدق والوفاء والطمأنينة والعاطفة والحب. يا إلاهي، وهل غادرت البصرة إلا من أجل هذا؟ ثم أنها قالت أبكي صديقتي التي خانتني وسرقت مني حبيبي، ياه، أفي العراق من يبكيه الحب والوفاء والصداقة؟ وقد ظننت ان الناس خرجت منها إلى المقابر والطوائف؟

لم اتوقف في بغداد طويلا، الآن ذهبت توتة الى مقصدها الذي لن اعرفه. ثم أنني أخذت الطريق سريعا إلى أربيل في الظهيرة البغدادية، لم تكن الشمس في بغداد قاسية كثيرا، بلى، كانت الريح شديدة، وكان غبار محلي صعد المباني الملونة العالية، لكن الأشجار تصدت للشمس والريح فكان الجو معقولا. ولما كانت الطريق الى اربيل بساعات خمس فقد وصلتها قبل غروب الشمس بقليل، ولكي اسدَّ ما في بطني من الجوع، دخلت مطعما قريبا من الفندق، طلبت طبقاً من الشاورما، فسألني ما إذا أفضلها بالبيرة فقلت: أي نعم. كانت صالة المطعم عامرة بالزبائن، الرجال منهم والنساء، ومن فروج المقاعد رحت أتلصص، فكانت النساء يحتسين البيرة مثلجة، فيما كان العرق الابيض مائدة الرجال، والنادلون طوافين على المقاعد.. موسيقى تركية تنبعث من أركان المطعم الاربعة. وقبل أن تفعل الكؤوس فعلتها بي وجدتني محاطاً بشيء من الوقار والطمأنينة.هل أطلت جلستي؟ بكل تأكيد، هل استمتعت بالموسيقى ومنظر النساء وهن يحتسين البيرة مثلجةً؟ أيما والله. وهل في البصرة مكان يتسع لهذا كله؟ سألت نفسي.

في الليل، أخذني صديقي البصري، الذي يستثمر في أربيل مشروعا كبيراً إلى ضاحية عينكاوة، وفي حانة جميلة المبنى، رحبة الحديقة، أجلسنا النادل بين الأشجار. سألنا ما إذا كان بصحبتنا نساء أم لا، كيما يختار لنا مكانا أفضل، أو أنه أراد ان يجلسنا في زاوية ما من الحديقة المحاطة بأنواع جميلة من الورود، هي للأسر، تشُرفُ على المكان كله، لأن المطربة اللبنانية التي أعلنوا عنها الليلة ستغني اغاني بالعربية اولاً، وهكذا، كانت الليلة واحدة من

أجمل ما تمنيته منذ سنوات.

طلبت خمرتي، نبيذاً احمرَ لكن صديقي، وهو (صاحب الدعوة) قال:لا، (إشرب ويسكي،عرق تركي، بيرة ألمانية، هولندية) ودع النبيذ لليلة ثانية، نزلت عند رغبته، فكانت بيرة هولندية يفوحُ الرَغَدُ والهناءةُ من زبدها، تسُرُّ عين صاحبها وتبهج قلبه، وتنقيّ كليتيه. وبين الفينة والأخرى يقف النادل على منضدتنا باسما، مقترحا علينا نوعا من الطعام، حتى أنَّ طاولتنا ضاقت بما عليها من المزات اللبانية، التركية، والعراقية أيضا.ياه... ما أطيب الفقُاع في بلاد الكورد، كان العربُ الأشرافُ والوضعاءُ من القرشيين والأمويين والعباسيين، والذين تعثمنوا وتفرسوا، فتعثمنوا وتفرسوا ثانية وثالثة ورابعة إلى أن تقطعت دولتهم إربا إربا يشربونها في البصرة والكوفة وبغداد وسامراء وعقرقوف، ومن قبلهم كان العراقيون البائدون في بابل وسومر ونينوى يشربونها مع آلهتهم ونسائهم وجواريهم وأسارى حروبهم ومحظياتهم ترى ما الذي يجري عندنا في البصرة اليوم؟

في الليل بعد عودتنا من البار البرح ذاك، ظننت باناّ آخر العائدين من السكر، لكنني فوجئت بان نزلاء ونزيلات بصريين وبصريات لمّا يعودوا بعد، قلت لعل التبضع من المُولات الواسعة الكثيرة أغراهم بالتأخير هذا، فكان ظني في غير محله، فقد عادوا، متعتعين، ضاحكين، مسرورين، فرحانين قلت: اللهم أدخل على أهلي في البصرة البهجة والفرح، وأحفظهم وأعدهم إلى اهليهم سالمين غانمين مسرورين، وفي صالة الفندق التي ضاقت بضحكهم وقفشاتهم لم أرَ بينهم من أساء، أو تجاوز، صاروا أرقَّ، وأبهى، وأجمل وأطيب حديثا، وكانوا كرماء بينهم، متسامحين حد الغفران. تذكرت في سري بعض طبائع الخمرة التي كانت تتحفنا بها كتب العربية، والتي منها اللطف والرقة والعذوبة والسخاء والحب والنسيان والصفح... لكن توتة ظلت شاخصة امامي في مضجعي بغرفة الفندق، ظلَّ الحبُّ غمامة بيضاء علقت بالسقف، حتى اخذتني سورة النوم.

**انتهى**